







محمّد سعيد العريان

أفلا

# شجرة الدر



شجرة الدر

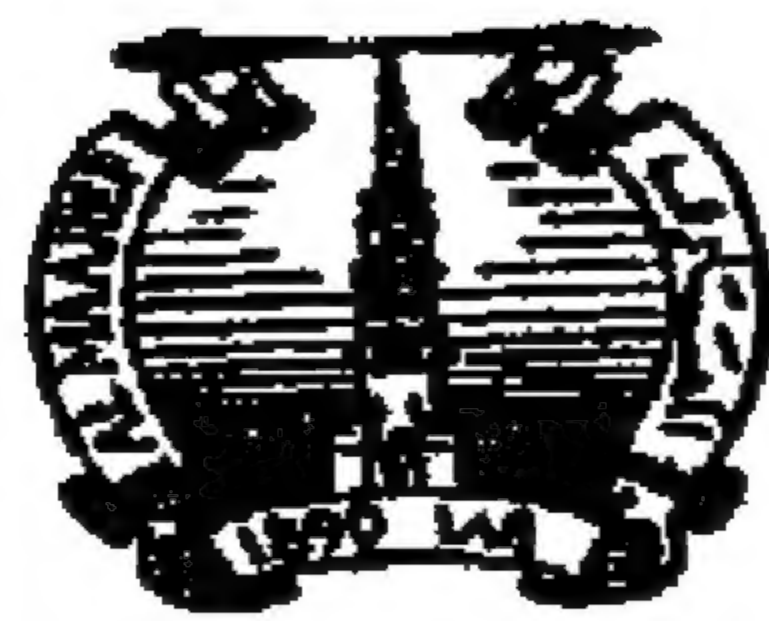


محمد سعيد العريان

# شجرة الدر

أقرأ  
٦٠  
دار المعارف للطباعة والنشر





جميع الحقوق محفوظة  
دار المعارف بـبصر

أطرق الأمير صامتاً وطوّفت أفكاره تجتار المسافات  
وتقطع الأبعاد البائية ، فإنه لى محله من ذلك الحصص  
الدى اتحدته قاعدة لإمارته فى أقصى المشرق ، ولكنه مما  
يصطرع فى رأسه من الحواطر وما يترأى له من صور الماصى  
القريب والبعيد كالتائه فى البيداء المترامية قد انصبح مداها  
وتباعد ما بين أطرافها بعد ما بين حصص كينا والقاهرة ..

أفمن أحل ذلك أحرجه أبوه من مصر وانترعه من بين  
مما ليكه وحده وقدف به إلى ذلك المنى السحيق \* ...

وثقلت وطأة الصمت على أصحابه وإن كانوا ليعلمون ما  
يصطرع فى رأسه من حواطر فكأنما يسمعون حديثه إلى  
نفسه ويبادلونه الرأى ، فقد طالعوا مد لخطات ما جاء به  
البريد من أنباء القاهرة فعلموا أن أميرهم مد اليوم ليس  
ولياً للعهد . لأن ولاية العهد قد صارت مد اليوم لأخيه  
الصنى سيف الدين .

صنى لم يلع الحلم ، والدولة يكتنمها الخطر ويترص بها

الأعداء من كل جانب . فثمة الصليبيون يتحفزون للوثبة  
على سواحل مصر والشام . والخطر المعول يمد مده نحو العرب  
ويكاد يبلغ بغداد عاصمة الخلافة ليثب منها إلى الشام ومصر ؛  
فماذا يملك مثل ذلك الصنى أن يدفع من هذا الويل ؟ الآن أمه  
« سوداء بنت نصر » أحظى نساء الكامل وأثرهن عنده ؟  
فليهنه رضاها ولا عليه بعد ذلك أن يتدد ملك بى أيوب وتطأه  
خيل الصليبيين والتتار .

. . وإذن فسيتقى الأمير نجم الدين فى حصص كيما أميراً  
على ما يليه من بلاد الموصل ، وسيتقى معه أصحابه وبطائه .  
فإن القاهرة منذ اليوم — أو منذ عدة — قاعدة ملك الأمير  
سيف الدين ١

وهم الأمير فخر الدين بن الشيخ أن يتكلم حين ارتفع صوت  
من وراء الحجرات يشد شعر الإربلى  
وإذا رأيت بنيك فاعلم أنهم قطعوا إليك مسافة الآجال  
وصل البنود إلى محل أبيهم وتجهز الآباء للترحال !  
ورفع الأمير نجم الدين رأسه وأدار عينيه فيمن حوله وهو  
يردد فى صوت خافت

. وتجهز الآباء للترحال .

قال الأمير فخر الدين قلقاً

— أتعنى يا مولاي . .

فابتدر الأمير وعلى شفتيه ابتسامة خاية .

— ماذا فهمت بالله يا فخر الدين فقال ملك الجوزع ؟ إن

هو إلا شعر طرق مسمعى فحرى على لسانى ، وإنه لأبى وإن

علبت على حزمه وإرادته سوداء بنت نصر !

ثم رم شفتيه وأردف قائلاً .

— ولكن ذلك الصبى لن يبلغ ما أرادت له أمه ، ولن

يكون له عرش مصر ! .

ثم انفض المجلس وتفرق أصحاب الأمير فصى كل منهم إلى

وجهه ، وحلوا الأمير إلى نفسه يدبر أمره . ولم الطواشى صواب

بانه شاكى السلاح متأهلاً لما يصدر إليه من أمر . .

”

لم تكن الأساء التى حاء بها البريد فى ذلك اليوم من القاهرة

مهاجأة غير منتظرة ، فقد كان الأمير يعلم علم اليقين منذ

أبعد عن القاهرة إلى حصص كيف أن ثمة أمراً قد أحكمت بت

نصر تديره ليحلو لسيف الدين وسه أليه ، ولكنه مع ذلك لم

يكن يتوقع أن يتم ذلك التدبير سريعاً قبل أن يستكمل أهنته

للمقاومة ، ويتكثر من الحقد والعتاد ، ويصطنع أسباب المودة بينه

وبين حيراه من أمراء الموصل ، وبينه وبين دوى قرابته من أمراء

بنى أيوب . وليس معه في هذا الحصن الباقى من صحابته الأدين  
إلا بضعة نفر . وليس له من الممالك إلا بضعة عشرات ، إلى  
بضع فرق من الحند لا تعنى عباء ، ومن أين له هؤلاء أن  
يعلب أخاه على العرش حين تحين الساعة ؟

وتذكر نجم الدين أميراً من أمراء الموصل يرايط في طريقه إلى  
مصر متربصاً به . ذلك هو بدر الدين لؤلؤ ، وإن له عند نجم الدين  
ثأراً مند غلبه نجم الدين على سحرار فاحتازها إلى إمارته وترك  
حيثه أباديد على طهر البادية ، وما كان لبدر الدين أن يسي ثأره !  
وتذكر نجم الدين كذلك ثأراً آخر يديه وبين السلطان عياث  
الدين صاحب بلاد الروم .

أفيكميه شر ذلك كله بضع عشرات من ممالكه إلى بضع  
مئات من الحند ؟ ولكنه قد عقد البية على أن يكون له دون  
غيره عرش الأيوبيه ، ولا بد أن يتم له ما أراد

ذلك كان هم الأمير . على حين كان لكل واحد من أصحابه  
في ذلك الحصن هم يشعله

هذا الأمير فخر الدين بن الشيخ قد أرق حصيه وأقص مصححه  
ما جرى على الأمير نجم الدين وما يحشى أن يثول إليه أمره وأمر  
الدولة إذا بدا له أن يشق عصا الطاعة أو يتمرد على أمر أبيه ،  
وإن عليه نعت تقتضيه أن يرحل إلى القاهرة بعد أيام ، فليس



يدري ما يكون شأن نجم الدين بعد أن يفارقه ويمضي لوجهه .

وهذا الصاحب بهاء الدين رهير قد برح به الحين إلى مصر  
وإلى أصحاب هبالك وصواحب ومنازل أهلة ومغانى مأنوسة كان  
يمنى نفسه بأن يعود إليها ، فالآن هيهات هيهات المعاد وقد صار  
عرش مصر لعير نجم الدين أيوب ، فهو منذ بلغه ذلك النبأ يحسو  
دمعه وحيداً ويشد

وحتام طرقي ليس يلتد بالغمص	إلى كم حياتي بالهراق مريرة
فلم أر فيها ما يسر وما يرصى	وكم قد رأيت عبي بلاداً كثيرة
ولا مثل ما فيها من العيش والخصص	ولم أر مصرأ مثل مصر تروقى
سواء ، فلا أحتار بعصا على عص	وبعد بلادى فالبلاد جميعها
فلا فرق بين الدار أو سائر الأرض	إذا لم يكن في الدار لي من أحبه

وهذا أيلك الحاشكير رحل ليس له شأن ولا حظري ذلك  
الخصص . ولكن مما يتحایل لعيبه من الأوهام والأمانى . في هم  
مقيم مقعد رقيق من الترك قدوت به المقادير إلى ذلك الخصص  
في مجموعة من الأرقاء والحوارى ، فلم الخدمة في مطمح الأمير  
حاشنكيراً يشرف على إعداد الطعام ويتدوقه قبل أن يمد الأمير  
إليه يده . ليستوثق من حودة طهيه وطيب مذاقه ، فأتاح له  
هذه الفرصة أن يكون أدنى إلى الأمير مرة وأحظى لديه من

عامة الممالك . وقد كان سعيداً بهذه المرة التي بلغ لولا حديث  
جري مد أيام بينه وبين أبي زهرة المنعم فردّه من السلام  
والطمأنينة إلى حال من القلق واشتغال الفكر لا طاقة لمثله باحتيالها ،  
فهو منذ سمع ذلك الحديث في هم وفكر ووحشة ، لا يكاد يتحدث  
إلى أحد أو يستمع إلى حديث أحد ، وما طيك بمملوك ممتن  
بين الأوعية والقلور يقع في رحمه أن سيصير يوماً ملكاً يجلس  
على العرش ويأتمر بأمره الملايين ١

وقد ضاق أليك آخر الأمر سره داك فأفصى به إلى طائفة من  
صحابته ليتخفف منه ، فما كان إفضاؤه به إلا هماً إلى هم ، فقد  
ركبه أصحابه بالعبث والسخرية وجعلوا حديثه نادرة وأفكوهة  
يتملحون بها كلما طاب لهم الحديث في سر أو علانية ، وكان  
أشدّهم سخريّة منه وعشاً به أصحابه الثلاثة : آق طاي ، ويديرس ،  
وقلاوون

ولم يكن همه الحديد عبتهم وسخريتهم ، فإنه لأرحب صدرأ من  
أن يستمره العصب لمثل ذلك ، ولكنه يحشى أن يمتد الحديث  
حتى يبلغ الأمير فتكون الطامة وهل يطمع مثله في العرش  
والإمارة إلا أن يكون منظوياً لأمره على نية العدر ١

قال قلاوون

— فإن كان أيبك قد خيلت له أوهامه أن سيصير يوماً ملكاً  
تأتمر الملايين بأمره ، فإن من حق تلك الفتاة التي التقطها الجند  
مند أساييع في سنجار أن تكون ملكة على عرش بي أيوب !  
قال بيدرس عائشاً .

— وإنها لأهل لداك  
فانتفحت أوداج أيبك واحمرت عياه غضباً لرجولته ،  
وهتف معبطاً

— بالله ماذا تعنى يا بيدرس ؟

قال آق طاي في هدوء

— حسبكم أيها الرفاق ، فإنكم لتوشكون أن تقتحموا مهلكة  
إد تحوصون في حديث هذه الفتاة . فليس يحمل مند اليوم أن  
يجرى حديثها على لسان وقد احتطاها سيدنا ومولانا الأمير نعم  
الدين ، فهي اليوم سرية من سراياه ؛ بل إنها مند نزلت دار  
الحريم أخطى حواريه إليه وآثرهن عنده

ثم أردف باسماً وهو يقلب وجهه بين أيبك وقلاوون .  
— ولم يعد قلاوون حين بدا له أنها أدنى منزلة إلى العرش من  
أيبك وإن كانت أنثى . إلا أن يكون أيبك أكثر إدلالاً لخطوته  
عند الأمير !

وأغرق المماليك الثلاثة في صحك عريض ، واحمر وجه أيبك ،



ولكن شفّيته لم تندسا بحرف ، فقد آثر أن يتوقى الهلكة وقد عرض  
ذكر مولاه ، ثم لم يلبث أن هض ليشرف على إعداد مائدة  
العشاء للأمير ، وسرح كل واحد من أصحابه في واديه ١

## ٢

لم يكن أحد في حصص كيف يعرف إلى أي حصص من الناس  
تنسب تلك الفتاة المثلثة التي التقطها حد الأمير دات عداة في  
سحار . فلا هي تركية ، ولا أرمنية ، ولا حركسية ، ولا من  
بات القريحة . فليس في وجهها ، ولا في لسانها . ولا في  
حركتها . ما يوصل إلى الأصل الذي انشعبت منه . ولكنها فتاة  
من بات حواء قد اجتمع لها من حصائص الحسن النسوى ما  
تشرق في النساء ألواناً وهوباً . وفيها من كل حصص وليست إلى  
حصص . وإلها إلى ذلك لداهية أريية دات تدبير وكيد ،  
وتحسن الخط والقراءة والغناء . وما كانت تعلم عن ماضيها  
وبشائها أكثر مما يعلم الناس . فقد أصبحت دات يوم فإذا هي  
حارية في دار . وما كان أكثر الجوارى اللاتي لا يعرف لهن آباء  
ولا أمهات ولا وطن في ذلك التاريخ البعيد ، كالأعشاب الطافية  
تهدنها على الساحل موحية المد . لا يعرف أحد أين كان مبيتها  
قبل أن يقدفها الموح على الساحل ولا تعرف هي نفسها ، وكان

التار مدفعين يومئذ في موحة اكتساح هائلة قد بدأت من أقصى  
المشرق وقد طفا على ثجها عشاء وعشب قد احتته من مابت  
متاعدة ثم قدته على الساحل .

وكات طملة حين احتملتها الموجه فرمت بها إلى حيث  
رمت ، فلما بلغت س التبير عرفت نفسها جارية في دار ،  
وأقامت بها حياً ثم حملتها الأقدار على موحة ثانية فرمت بها في  
دار غيرها لم يطب لها فيها المقام ، فصت على وجهها حتى  
التقطها جد الأمير نجم الدين فزلت عنده مرلاً رهاً وتماأت  
طلا ظليلاً .

قال الأمير نجم الدين

— ولكك لم تذكرى لى يا فتاة ما كان من حرك فى قصر  
الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حتى آثرت الفرار إلى  
حيث التقطك عسكرنا ؟

فرغت الفتاة إليه طرفاً بدياً ، ثم أطرقت وتسابت على  
وحتيها الدموع ، فدنا منها نجم الدين وصمها إليه فى حان  
وعطف . ثم أرسلها من بين يديه وهويقول

— لا عليك يا فتاة مما كان ولن أهيحك بعدُ بذكره ،

فطبي نساء !

ثم حلاها بين يدي ماشطتها وخرج لبعض شأنه .

قال الطواشي بدر الدين صواب لمولاه وقد حلا لهما المجلس .  
 — كأن قد عرفتُ ما كانت تحرص الفتاة على كتمانها من  
 خبر ماضيها . . لقد احتار الله لك يا مولاي واحتار لها .

قال الأمير في لهفة

— ماذا عرفت من خبرها يا صواب ؟

قال صواب :

— إنه تاريخ بعيد يا سيدي ، أوصى إلى سره جدي من  
 الخوارزمية كان من حاضرة السلطان جلال الدين بن حوارزم  
 شاه . وقد عرفها منذ كانت طفلة في حجر السيدة فاطمة خاتون  
 قبل أن تصير زوجاً للسلطان !

قال نعم الدين مدهوشاً :

— تعني فاطمة بنت طغرل السلجوقي ؟

فأوما صواب برأسه

— نعم . ملكة تيريز ، وسيدة العجم ، وزوج السلطان  
 أربك البهلوان . فلما انقطع ما بين الخاتون وأربك حين أسرف  
 في اللهو والفاحشة وأحمل تدبير الملك ، خلعت الخاتون طاعته  
 وانفصلت عنه واستقلت بالحكم في تبرير ، ثم حالت جلال  
 الدين واتحدته زوجاً ، وحاصت معه الغمرات حتى أدركه الأجل  
 في حرب التتار وتدد ملكه ، فذهبت في الأرض ، وقدفت

المقادير بفتاتها إلى بدر الدين صاحب الموصل<sup>١</sup>

قال نجم الدين ،

— هيه ! ثم ماذا يا صواب ؟ فوالله ما حابت فراستى فيها

وإن فى وجهها أمارات الملوكية !

قال صواب

— ثم لم يطب لها المقام ثمة حين أراد بات بدر الدين أن

يمتها مهة الجوارى وإياها لأعرق أرومة من بدر الدين وبنات

بدر الدين ، إنها لدرة يا مولاي لم يلتقط مثلها غواص<sup>١</sup>

قال نجم الدين وقد تهباً للقيام

— بل هى يا صواب « شجرة الدر »<sup>١</sup>

وحطبت الفتاة مند ذلك اليوم عند الأمير نجم الدين أيوب ،

فليس لغيرها من خطاياها وفساده مكان فى قلبه ، ثم رادت خطوة

حتى صارت صاحبة رأى والمشورة ، ثم زادت حتى ليس

لغيرها مع الأمير رأى ولا مشورة ، واستأثرت بالسلطان

على أن مكانة شجرة الدر عند الأمير لم تكن دون منزلتها عند

عند سائر المماليك والجند وأصحاب الوظائف فى الحصص ، فقد

كانت من حصافة رأى وسعة النفس وبسطة الكف بحيث

صارت بين الجميع ملكة بلا تاح ولا عرش ، يديون لها

بالحب والولاء والطاعة ؛ وكأما كانت شأها الملوكية فى حجر

فاطمة بنت طغرل ملكة تيرير ، وتنقلها بين ألوان من السلطان  
في بلاط آل سلجوق ، وأربك . وحلال الدين - إرهافاً لما  
بلغته من المحن والجاه في بلاط الأمير نجم الدين أيوب سليل  
العتارييف من حلفاء صلاح الدين

وسرى عن الأمير بعض همه ، ووجد روح الاطمشان  
وهدهء القلب في جوار صاحبه الفاتنة . ولكنه إلى ذلك لم يعمل  
لحظة عما كان يجري في القاهرة من أحداث . فلا يزال يترقب  
الفرصة التي تنهى له أن يرد إلى عرش الأيوبيين هيئته ويدفع  
عن البلاد ما يتربص بها من شر الصليبيين والتتار ، ولا يزال  
يردد مصحاً وممسياً بيتاً من شعر الإربلي هتف به الهاتف من  
وراء الحجرات ذات يوم كأنما هو إندار من وراء العيب يوم  
قريب للملك الكامل .

وصل السود إلى محل أبيهم وتجهز الآباء للترحال !  
وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ في القاهرة يرقب كذلك  
ويتربص

### ٣

- سترقى إلى العرش يوماً أيها الفتى ، وتلعب من المجد  
والسلطان ما لم يخطر لك على بال ، ولكن .



— ماذا يا أبا رهرة ؟

— لا شيء ، أفليس يكميك أيها المملوك أن تبلع العرش ؟

أفتطمع فوق ذلك في مرید من السعادة ؟

— بلى . ولكيك لم تفصح لى عن كل ما فى نفسك ، أثمة

ما تخاف أن تفشى به إلى من أنباء العد ؟

ابتسم أبو رهرة المكشوف وهر رأسه هزات دائرية متتابعة ،  
ثم تنفس نفساً عميقاً وراح يمشط بأصابع يسراه لحية مسترسلة  
على صدره وهو يقول ساحراً

— نعم ، نسيت أن أقول إنك ستروح . ثم تموت !

ردد أيلك في بلاهة

— أتروح ثم أموت !

قال أبو رهرة وهو يتحسس موضع عصاه إلى حابه ليهض :

— ألا تصدق هذا ؟ أتظن أن تموت أولاً ثم تتزوج بعد ؟

وقهقه في سخرية . ومضى في طريقه يذب على عصاه ،

وترك أيلك في بحرايه !

ذلك كل ما جرى من الحديث بين أيلك الجاشكير وأبي

رهرة المسحوم ، ولا يزال أيلك مد سمعه في هم وقلق ، ولا يزال

أصحابه مد حديثهم نخره يركبونه بالعبث والدعابة والسخرية ،

لا يكاد يطالعهم وجهه حتى يحدوا من تشقيق ذلك الحديث  
مادة للصحك والفكاهة .

على أن حديث ذلك المنجم لم يلبث أن فقد سحره بين هؤلاء  
الثفر من المماليك ، فقد أسر أبو زهرة إلى بيبرس ، كما أسر إلى  
قلاوون ، حديثاً مثل حديثه إلى صاحبهم أيك أو قريب منه ؛ فإن  
صبح ما حدثهم به فسيكون جميعاً ملوكاً ، ويتزوجون ، ثم يموتون ...  
وأين البلد الذي يتسع عرشه لثلاثة ملوك ، أو أربعة !  
قال آق طاي عابثاً :

— لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . صدق الله وكذب  
المنجم !

فضحك بيبرس وقال

— أفلمست تريد أن تستنبئه مثلنا أبااء عدك ، فلعله أن  
يأيعك مثلنا ملكاً رابعاً !  
قال آق طاي .

حسه أن يسحر مسكم ، أما أنا فلمست أريد أن أكون ملكاً ،  
وليس يعينى أن أتزوج قبل أن أموت أو أموت ثم أتروح  
وأعرق المماليك الأربعة في الصحك ثم تفرقوا فذهب  
كل منهم إلى وجهه

ومصب أيام قبل أن يتجدد حديث أنى رهرة بين الممالك .  
 ذلك أن أيبك الجاشكير قد أشرف على الموت ، ولم يتزوج ،  
 ولم يبلغ العرش ! وهؤلاء أصحابه قد تحلقوا حول فراشه مشفقين  
 حرعين ، وهويئس ويتلوى قد احتقن وجهه وتقلص حبيته ، وهذا  
 رسول الأمير نجم الدين يسأل عن حاله قلقاً مثلهم مشفقاً أن  
 يبال ذلك المملوك المخلص سوء .

وطل أيبك في الفراش أياماً يتوقع أصحابه في كل لحظة أن  
 يترعه الموت من بينهم ، ثم رايله الخطر وبجا ، ورفت البشري  
 إلى الأمير نجم الدين فسرى عنه واستبشر . لما كانت  
 سحابة أيبك إلا سحابة للأمير من ستر كان يتربص به ، فقد كان  
 الأمير حالساً إلى مائدته ذات مساء وقد قدم إليه عشاؤه ،  
 وتذوق الجاشكير الطعام على عادته قبل أن يمد الأمير إليه يداً ،  
 فلم يكذ يحس مذاقه حتى صاح عجباً :  
 — في الطعام سم يا مولاي !

وعثيت نفسه ودار رأسه ، فلولا أنه استند إلى الجدار لهوى  
 بين يدي مولاه . وهص الأمير عن المائدة لم يصب منها شيئاً ،  
 وحمل أيبك الجاشكير إلى فراشه والسم يمرق أحشاءه .  
 وكافأه الأمير على ما ناله ، فعقد له على جارية من بنات  
 الإغريق ذات جمال ودلال وفتنة ، كانت من سبايا الأمير



عداء عودته من حرب عياث الدين صاحب بلاد الروم ،  
ولكنها ترعم أن لها نساء ملوكياً في بلاد الأشكري صاحب  
القسطنطينية . وكانت تحماها ودلاها وما ترعم من عراقه أصلها ،  
دات حظوة بين حوارى الأمير . حتى علتها على مكانتها شجرة  
الدر ، ثم زيت للأمير من بعد أن يهبها لملوكه أيبك ،  
لتخلص منها ويحلوا لها وجه الأمير

قال بيبرس لصاحبه صاحكاً

— هذه ببوءة من ببوءات أبى رهرة قد تحقق يا أيبك ،

وتروحت قبل أن تموت !

قال آق طاي

— ولكن ببوءة أبى رهرة لم تبلى به العرش وكان حقيقاً بأن

يبلعه قبل أن يتزوج لو صدق المسح ! !

قال قلاوون ساحراً

— بل أراه قد بلغ أوكاد . أليست روحته من نبات الأشكري

فيما ترعم ، فقد أوشك أيبك أن يجلس على عرش أبيها في

القسطنطينية !

قال أيبك مسترسلاً فيما بدأ أصحابه من الدعابة

— ويكون من وزرائى آق طاي ، وبيبرس ، وقلاوون !

فصاح آق طاي مصطعاً هيئة العصب

— احسأ ! أكون مثلى وريراً لك !

قال قلاوون .

— أما أنا فقد رصيت أن أتوررك . على أن تجعل لى

العرش من بعدك !

قال بيرس

— بل يكون لى العرش من بعده وتكون وريرى وولى

عهدى يا قلاوون !

قال آق طاي

— اقتسموها بيبكم على أى وجه شتم ، أما أنا فلن أطلب

العرش قبل أن أطلب روحة من بات الملوك لم تدحل تحت

رق قط !

## ٤

جلست شجرة الدربين يدي ماشطتها ترحل لها شعرها

وتصمحه بالطيب وتعقد منه ما تعقد حلقات وترسل ما ترسل ،

وشجرة الدربى عملة عن نفسها وعن ماشطتها وما تفتى فيه من

أسباب ريبتها ، قد سرحت حواطرها هما وهالك ترود أقطاراً

لم تقع عينا عليها قط ولم تتمثلها فى وهم ولا فى حقيقة ترى

مادام فى القاهرة وعلى البيل من معانى الحس ومجالى الهوى فإنها

لننضم وحداد كل من في هذا الحصن حيناً ولهمة ، فلا تزال  
كلما أرهقت أدياً سمعت منشداً يشدو أو حارية تعي  
حبداً دور على الليل وكاسات تدور  
ومسرات تموج الأرض منها وتمور  
وقصور ما لعيش بلكته فيها قصور  
كم بها قد مرى - أستغفر الله - سرور  
كل عيش غير دالك العيش في العالم رور  
منزل ليس على الأرض له عدى بطير !

« دور ، وكاسات ، ومسرات ، وقصور ، وسرور ، وكل  
عيش غير ذلك رور » . تلك أغنية الجميع في ذلك الحصن  
شباناً وكهولاً ومشيعحة ، حتى الأمير نفسه - على ما فيه من  
وقار الإمارة - لا يكاد يحلو إلى نفسه ساعة حتى يحرق على  
لسانه بيت أو أبيات من مثل ذلك الشعر ، فيه الهوى والحسين  
واللهمة ، ولا يرال بهاء الدين زهير ، ذلك الشاعر الوشاء ، ينظم  
كل يوم حديثاً من الشعر يدكي به عواطف الشباب والكهول  
ويبعث الشوق والحسين

وهاج بها داء الأثني فتحيلت في سر كل أعية من تلك  
الأعلى بضمة قلب عاشق معارق ، فهشتها عقارب العيرة ،  
لها لتريد نجم الدين حالصاً لها من دون النساء !

وفرعت الماشطة من زينة سيدتها ولم تؤيب السيدة بعد من  
سرحتها في عالم الأوهام ، وهتعت بها الماشطة  
— سيدتى !

فانتهت شجرة الدر كأما آت من سمر بعيد ، واعتدلت  
لترى صورتها في المرآة مقبلة ومدبرة ، ثم ابتسمت ، فأشرقت  
اشتياها بالور على وجه لم ينطع في المرآة أجمل منه ، فرضيت  
وقرت عيناً ، وعظمت حبتها إلى الماشطة شاكرة  
— لله ما صنعت يدك يا فتاة !

#### قالت الخارية

— بل سبحان الذى خلق موسى يا مولاتى ، لقد آثر الله  
مولائى الأمير من هذا الحمال نعمة لم يطهر مثلها أحد من  
ملوك الأرض ، وإنه لحقيق بما نال !

فابسطت نفس الأميرة مما سمعت من تناء الخارية ،  
وأست إليها فأقلت عليها تحدثها وتستمع إليها ، كأما تريد أن  
تزیدها حديثاً عن حماتها ، أو أن تبدأها حديثاً آخر عن الأمير  
الذى تريد أن تستأثر بحبه فيكون قلبه حالصاً لها من دون النساء

#### قالت شجرة الدر

— منذ كم تعيشين في قصر الأمير يا فتاة ؟  
قالت الفتاة

— مند شأت يا سيدتى . وكانت أمى ماشطة السيدة  
« ورد المي » والدة الأمير . فاحتصت بحدمة مولاي مند  
كان نائبا عن أبيه الملك الكامل في القاهرة  
ثم أردفت الفتاة وفي عينيها حين ولعة  
— آه يا سيدتى لو رأيت القاهرة ! إنها عروس المدائن ،  
ولقد شهدت في رحلتى إلى هذا الحصن : دمشق ، وبيداد ،  
وكثيراً من بلاد المشرق ، فوالله ما رأيت بلداً كمصر ولا بهراً  
كالنيل !

فأسلت شجرة الدر حصنها وقالت وعلى شفتيها انشامة

— لعل لك هوى في القاهرة يا حيان !

فاحمر وجه الفتاة من حياء وأعضت ، ثم قالت .

— إن هوى يا مولاتى حيث يكون هوى الأمير !

قالت شجرة الدر في حبث

— وأين هواه اليوم ؟

قالت وفي عينيها إعجاب

— إن هواه اليوم يا مولاتى حيث تعرفين ، وإيه حديث

كل من في الحصن !

وسمعت خطوات تقترب من باب المجدع . فهمت الفتاة

معدرة المكان . وحطمت شجرة الدر بظرة إلى مرآتها قل أن



تخطو إلى الباب لتستقبل مولاها  
 ونحلا المكان إلا من اثنين ، ولكن الأمير ظل صامتاً حامد  
 الوجه قد سرح فكره وصوب نظره ثابتاً لا يكاد يطرف ،  
 وتعلقت به عينا صاحبه صامته مثله لا تجرؤ على أن تبدأه  
 الحديث . وطال بينهما الصمت ، فما قطعه إلا صوت مطرب  
 يعنى من وراء الحجرات شعر رهير

حددا دور على البيل وكاسات تدور !  
 وثابت إلى الأمير نفسه فتعس نفسها عميقاً ، ثم هر رأسه  
 وهو يردد

— حددا دور على البيل  
 واقبصت نفس صاحبه واعتادها داؤها وتحيلت ما تحيلت  
 من أوهام الأثني . ولكنها كطمت نفسها وقالت وهي تصطع  
 الهدوء .

— أرى مولاى بحاجة إلى أن يسمع عواء ليتحفف من  
 بعض أثقاله ويريل متاعه !  
 قال الأمير باسم

— حددا يا شجرة الدر !  
 فقامت إلى حرانها فأحرحت عوداً فاحتصته وحت عليه

وراحت أصابعها تجس أوتاره ، ثم رفعت إلى الأمير عيين  
هاتنتين وهي تقول .

— أفريد مولاي أن أعى له ذلك الصوت أم يقترح  
صوتاً غيره ؟  
قال الأمير .

— بل تقترحين أنت ؟

فأعضت رأسها ومرت أصابعها على العود ، وارتفع صوتها  
رويداً رويداً .

أغار عليك من عيني ومي      ومك ومن مكانك والرماني  
ولو أني حانتك في جهوني      إلى يوم القيامة ما كهاني ؟  
قال الأمير وقد استحمه الطرب  
— ولا كهاني ؟

ثم مد إليها يداً فأهصها ومصيا يجوسان حلال العرفات  
سعيدين بما نلعا من نعمة الحب والوفاء

لقد عرفت شجرة الدر مكانها من نفس أميرها وعرف بحم  
الدين مكانه . وكانت من العيرة عليه والرعة في الاستئثار به  
في مثل غيرته وأثرته . فلم تدع له مد توائفا على الحب أن يصكر  
إلا فيها أو معها ، ولم يدع لها : لا تريد ولا يريد أن يستأثر أحدهما  
دون صاحبه شيء ، ولا أن يصكر مفرداً في أمر ، فهما سواء

وعلى رأى مشترك فى الحب ، وفى الحرب ، وفيما يصطنعان من أساليب السياسة لإدراك العرش . وعادت عيرة الأنثى على رحلها عيرة ملكة على السلطان تريد أن يمتد ظلها على البسيطة ويدين لها الملايين بالطاعة والولاء ١ .

## ٥

اطمأن الملك الكامل إلى عاقبة أمره وسلامة تدبيره حين استخلف ولده العادل سيف الدين على عرش مصر وجعل ولده الصالح نجم الدين على عرش المشرق ، وحيل إليه أنه يستطيع أن يخلد إلى الراحة والسلام ما بقى من أيامه وقد بلغ الستين من عمره . جلس منها على عرش مصر أربعين عاماً ، نائماً عن أبيه أو مستقلاً بالحكم

على أن الملك الكامل — على حكيته وأصالة رأيه وطول تمرسه بالحكم — لم يلق نالاً إلى ما قد يحد تدبيره ذاك من معارضة الأمراء العظام من آل أيوب ، ومنهم إخوانه وأبناء عمه أمراء الشام ، وكلهم يرى نفسه أحق بعرش مصر من ذلك الصبي . كما عمل عما قد يلحق ذلك التدبير من مقاومة ولده الصالح نجم الدين نفسه ، وهو أرشد بنيه وأحقهم بحلافته على عرش  
بى أيوب



فلم تكذ تديع تلك الأساء من القاهرة حتى تمرد أمراء الشام وشقوا عصا الطاعة ، فشبت سلسلة من المعارك بينهم وبين الكامل لم تدع له فرصة لما كان يأمل من الطمأنينة والسلام ، على حين كان ولده الآخر في حصن كيما يدير تدبيره في صمت ويتحين الساعة التي يقص فيها على عرش القاهرة فيستحلصه لنفسه ، وكانت توارده في التدبير روجه الشاة الطموح شجرة الدر ، وقد ارتفعت منزلتها عند الأمير منذ ولدت له ، فلم تعد كما كانت منذ قريب حارية محتطاة ، ولكنها روجه وأم ولده وصاحبة تدبيره وشريكته في الجهاد ، وقد أخذ لها هذا المولود أماني واسعة ، فهي اليوم روجة الأمير الذي يهيئ نفسه لعرش مصر والشام والجزيرة وما يليها من البلاد ، وهي في عد أم السلطان خليل ابن السلطان نجم الدين وحليفته على عرش بني أيوب ، وتجتمع في يديها كل السلطات ١

قال الأمير وقد تناول الطفل بين يديه وتمثل في نظرة عينية كل حمار الأتوة

— هذا يومك يا بني فليت لي علماً عن عدك ١

فرقت عينا أمه وسرحت محواطرهما تتحطى الرمان والمكان وثناً مكاناً قد رأت نفسها على عرش مصر سلطانة ورأت فتاها .

فلم يرّدها من سرحتها إلا حاضنة الصبي وقد افتر ثعرها عن  
انتسامة الأمل وهي تقول

— سيبلغ حيث أردت يا مولاي تتوفيق الله . وتهتف  
باسمه الخلائق في شرق الأرض وعربها ، ويعيض المجد على كل  
من حوله من آل بيته !

قالت شجرة الدر وقد اتسعت نفسها حتى شملت كل ما  
حولها برأ ورحمة

— ويعيض بره على حاضنته حاتون التي بشرت بما يبلعه  
من المجد قبل أن يدرح من مهده !  
قالت الحاضرة .

— وتكون كل سعادتي يومئذ يا مولائي أن أناهي بأبي  
حاضرة السلطان خليل وصفيّة أمه ، إن راقك يا مولائي أن  
تصطلي مثل جاريتك حاتون !  
فربت الأميرة كنهها قائلة

— بل إن أمه يومئذ لتباهي بأبك حاضرة ولدها !  
ودس الأمير يده في حيبه وبثر كيساً من ذهب في حجر  
البحارية ، ثم انصرف لشأنه وحلى المرأتين تتحاوران إلى جانب  
مهد الصبي ..  
قالت خاتون

- إن لاني رهرة المنجم يا مولائي أسباباً وثيقة إلى العيب ،  
 وإنه لشيخ قد عمى وكف بصره ولكنه فيما يروى من أبناء العد  
 كأما يقرأ في لوح مسطور !

قالت شجرة الدر

- وتؤمنين بما يهرف به هؤلاء المشعورون يا حاتون ؟

قالت .

- إنه إلا يصدق يا مولائي فيما يحدث به من أبناء الغيب  
 وحسبه أن يبدر بدور الأمل ويشر السلام والطمأنينة ، وقد  
 استمعت إليه منذ أيام يتحدث إلى جهان ماشطة مولائي حديثاً  
 ما يرال له حمرة في وجنتيها ويريق في عينيها ، كأن قد بلعت كل  
 المني ، وما زاد الأمر على حديث سمعته !

قالت شجرة الدر حادة :

- ماشطتي جهان ؟ فادعها إلى أن أسمع حديثها !

فغضت حاتون على شفها وقالت

- معدرة يا مولائي ، فما قصدت أن أفشي سر جارية من  
 حوارى مولائي تحلص لها الحب ، وإنما استرسل بي الحديث  
 وأعراني عطف مولائي !

قالت

- لا عليك من ذلك يا حاتون ، وإنما يشوقني حديث تلك الجارية.

فهبت حاتون لأمر سيدتها . ومالت شجرة الدر على مهد  
الطفل النائم تنشق من عبق أنفاسه روح الأمل .

\* \* \*

وكانت حهان فتاة مشبوبة العاطفة مرهفة الحس ، وقد  
نشأت جارية في بيت نبي أيوب بالقاهرة ، ولكن مكانة أمها  
من « ورد المي » أم الأمير نجم الدين قد هيأت لها بين جوارى  
الأمير منزلة خاصة فرصت عليها نوعاً من الوقار والترمت حال  
بيها وبين كثير من مسرات الشباب ، فطلت عذراء القلب ، إلى  
عاطفة مشبوبة وحس مرهف ، ثم تهيأت لها الفرصة ذات يوم  
للحديث إلى المملوك بيبرس ، فسرى بينهما تيار الحب وما كشف  
لها عن ذات صدره ولا كشفت له ، ثم أعلق من دونهما الباب  
فما رآته ولا رآها من بعد . ووقع في شرك الحب قلنان لا يجدان  
وسيلة إلى اللقاء ولا سبيلا إلى السلوان !

ولم تكن الفتاة تدري بما يعتلج في نفس صاحبها من الهوى  
ولا كان هو ؛ ولكنها من الوحدة والكتما كانت أشب عاطفة  
وأشد قلقاً ، فالتفت أبا رهرة المسجم تستعيه على أمرها وتستبثه  
أبناء العد ، فأبأها ، ولم يزل لحديثه مد ذلك اليوم حمرة في  
وجنتها وبريق في عينيها ، وعرفت خاتون من خبرها على لسان  
المسجم ما عرفت فتحدثت به إلى مولاتها شجرة الدر

قالت الأميرة

— وإدد فأنت على ثقة من حبه يا حهان ؟  
فأعضت رأسها وتصرحت وحثاها من حياء ولم تحب

قالت شجرة الدر

— لا تراعى يا فتاة . إن بييرس حدى من حد الأمير  
برحى عده . وإبك لتعرفين مكانك من نفسى ومن نفس  
الأمير . فسيجتمع شملك ببييرس وتكوين له ويكون لك ،  
ولكن عليه قبل أن يطهر بهذه الأمية أن يؤدى ثمنها ؟  
ثم استصاحت وقالت .

— وفى دار على الليل يا حهان ليس مثلها فى الأرض ، يكون  
اجتماع شملك من تحيين ، وتعين له ويستمع إليك حدا دار على  
الليل أما هنا فلا ، إن عليه سراً طويلاً قبل أن يبلغ منزلك ؟  
قالت الفتاة ولم تر فى إطرافها

— شكراً يا مولاتى

هدت الأميرة إليها يداً فأهبتها وهى تقول .

— لا شكر اليوم يا بية . فانتطرى حتى ترى وبرى ما  
يكون عدك ؟

ودرى بييرس بكل ما كان من خبره وجبر صاحبته ، فاعتقدها



بدأ للأميرة عنده تفتصيه الوفاء ، وكان همه مد اليوم أن  
يلتمس أسباب رصاها ، وأفعم قلبه الأمل !

## ٦

لم يجد الملك الكامل ما كان يأمل من الطمأنينة والسلام ،  
فلم يكذ يقصى على أسباب الفتنة التي أشعل نارها أمراء  
الأيوبيين في الشام حتى بعته الموت ، ثم لم يكذ يوارى الثرى في  
دمشق حتى تجددت مطامع الأمراء في عرش نبي أيوب .  
وبلغ النعمى الملك الصالح نجم الدين في حصن كيبا ، فأعد  
عدته للمسير إلى مصر

واستأثر العادل سيف الدين بالملك ، وتوأ عرش أبيه في  
قلعة الجبل . ووضع يده على حرائه وما حلف من مال ومتاع ،  
واتحد له حاشية ووطانة

وبدأ رحف الصالح نجم الدين أيوب من المشرق ليستخلص  
لنفسه العرش . وكان على رأس حنده بيبرس وأيك وقلاوون  
واق طاي ، وإلى يمينه وشماله مشيران أميان شجرة الدر أم  
حليل ، والصاحب مهاء الدين رهير . وتتاعبت الرسل من القاهرة  
تستحثه على الإسراع فأعد السير معرباً وقد طمحت نفسه  
بالآمال ، ولكن كيباً كان قد أعده بدر الدين لؤلؤ عند سبجار

قد برر فجأة في طريقه . فتعثر حده واقتيد أسيراً إلى قلعة  
سحار . ليس معه إلا روحه وقليل من صحابته ، وحيل بيده  
وبين أمانيه . . .

قال نجم الدين مستيئساً

— هذا يا شجرة الدر آحر المطاف ، فما أطبى أحلص  
ولياك من هذا المعتقل ، وإن لدر الدين عدى ثأراً لا يساه  
وقد أدلت كبرياءه وحطمت حده وجعلته مثلاً بين الأمراء .  
وقد أقسم من يومئذ إن حصلت في يده ليحطمن كبريائي  
فيقتادني إلى بغداد حياً في قصص مصعداً بالأغلال !

قالت شجرة الدر

— لا عليك يا مولاي من وعيد بدر الدين ، فما أراه والله  
بالعاً من ذلك شيئاً ، ولن يحصل في يده نجم الدين ، ولا شجرة  
الدر ، وسيوء بالخسران في العاقبة كما ناء في الأولى !  
فهر نجم الدين رأسه وارتسمت على شمتيه ابتسامة وهو  
يقول

— ومن أين لنا الخلاص ومن دوننا هذه الأسوار وهؤلاء  
الحراس وليس لنا من الحد قوة تعنى في اقتحام هذا الحصن !  
فجاوبته ابتسامة بابتسامة وقالت

— دع تدبير ذلك لي يا مولاي ، فوالله لا يكون إلا ما تريد !

فلما كان المساء كان القاضي بدر الدين السجاري مرتفعاً إلى نافذة من نوافذ القلعة تشرف على الطريق يتهياً لأمر قد أعدت عدته ، فلما تجلس الكون بالظلام هص فانتطق بجبل من كتان ودلاه صاحاه من النافذة رويداً رويداً حتى لامست قدماه الأرض . فحل مطقته ومضى في طريقه معرباً لا يلوى على شيء ، وطال به السرى والتهجير لا ينشد الراحة لحظة ، حتى بلغ مصرناً من مصارب الحوارمية فتمهل ، ثم سأل عن خيمة الأمير حسام الدين بركة مقدم الحوارمية فدل عليها ، فاستأذن ودخل ، ثم دفع إليه رسالة من شجرة الدر . فما كاد يتلوها حتى أدناها من شفتيه فقلها ثم رفعها إلى رأسه تكريماً وأصبح مد العد على الطريق إلى سحرار يقود جيشاً من الحوارمية يحجب عباره وجه الشمس !

وكان الحوارمية مد انحلت دولتهم وعليهم التار على بلادهم بعد مصرع السلطان جلال الدين — قد تفرقوا في البلاد يترقون سيوفهم في حيوش الإمارات المتنافسة . فهم جند كل دى مال من الأمراء . يعلب بهم ما وسع عليهم الرق ، فإذا قص يده انفصوا عنه يلتمسون رقاً جديداً في جيش حديد ، على أن بقية من الحماط والمروعة كانت تحصرهم أحياناً إلى ألوان من البطولة والحدة تذكر ببعض ما كان هؤلاء الحمد أيام عز



دولتهم من المجد والكرامة . وقد حاءهم كتاب شجرة الدر فلم  
يسمعهم أن يتحلوا عن تقاليد الفروسية المحيدة التي ناشدتهم إياها ،  
فهبوا لنجدة الأسيرين الكريمين في قلعة سسجار

وكان الملك الصالح قد بلغ منه القلق مبلغه لا يدري أين  
ينتهي به الأمر وقد أعلقت من دونه أبواب هذه القلعة ، على أن  
شر ما كان يحشاه ، أن يعطى أسره إلى مكان شجرة الدر فيقتادها  
إلى الموصل حيث كانت قل أن تأوى إلى كفه ويثار ثارين  
من عدوه بحم الدين !

ومضى نجم الدين يحوس حلال القلعة قلقاً حيران ، فادا  
جماعة من صحابته في الأسر قد تحلقوا حول شيخ مكشوف البصر  
يستمعون إليه خاشعين مستغرقين في الفكر فلم ينتبهوا  
إلى موقف الأمير مهم على مقربة ذلك أبورهرة المنجم ، وكان  
قد خرج في ركب الأمير يقصد مصر فاقنيد أسيراً مع الأسرى ،  
وأولئك أصحاب الأمير يستمعون إلى ما يحدثهم به من أساء  
العيب ، ليصرفهم ذلك عن بعض ما يلقون من الصيق والقلق  
والملال ووحيد الأمير في حديثه ما يصرفه عن بعض ما يلقى ،  
فدعاه إلى خلوته وحلس يستمع إليه .

وكان حند الحوارمية يقتربون من القلعة وقد سبقهم الغار ،  
فأسرعت شجرة الدر إلى الأمير تنبئه النأ ، ورأت أبا زهرة في

مجلس الأمير ، فقالت صاحبة

— لعل المعجم يا مولاي قد سبق إليك بالبشرى !

فرجع الأمير إليها رأسه وقال في لهمة

— ما وراءك يا شجرة الدر ؟

قالت .

— الحير يا مولاي كل الحير

ثم صمته إلى حيث يرى

وأطبق الخوارزمية على حشد صاحب الموصل فلم يدعوا لهم  
فرصة للدفاع ولا سبيلا إلى الفرار ، وعص الميدان بأحساد القتلى  
والخرى وتحصنت الأرض بالدم ، وبعا بدر الدين لؤلؤ رأسه  
وحيداً على فرس عاطل يطالب البيداء ، وافتتح باب القلعة  
وخرج الملك الصالح وأصحابه يستأنفون السير إلى مصر ووراءهم  
من الخوارزمية حيش لحب . وانفسح أمامهم المدى ١

وعلى امتداد الطريق بين الموصل والشام كان إلى  
حاجب مركب الأميرة مركب آخر يصم طفلاً بين يدي  
خاصته ، ولید لم يبلغ سن العظام ، مهزول ضعيف ، ولكنه من  
عظم الشأن بحيث لا تكاد الأميرة شجرة الدر تفكر إلا فيه أو  
تحمل إلا همه . ألم يحدثها أبو رهرة المنجم أنها ستبلغ باسمه  
العرش فتملك وتحكم وتبلغ من المجد ما لم تبلغه امرأة في

تاريخ المشرق والمغرب ؟ ولكن أنا رهرة لم يمصح عن كل ما في  
 نفسه . فلم يبدئها ماد سيكون شأن ذلك الصبي ، وإعما حديثها  
 عما سيكون شأنها هي باسم الصبي ما معنى هذا وما دلالة ؟  
 على أن ثمة إشارات أخرى عامصة كانت تتحلل حديث ذلك  
 المحم لا تكاد تخطر إلى متهومها ولكنها تملأ نفسها قلقاً وريبة ،  
 وإيها إلى ذلك لتحس أن في نفس الملك الصالح من القلق  
 والريبة مثل ما بها مدد نعتته ذات يوم يتحدث إلى ذلك المحم  
 في قلعة سحر ، أترأه قد أسر إليه حديثاً عنها وعن ولدها مما  
 يقلق ويريب ؟

وتورعتها الطيون فلم تكذ تستقر على رأى ، ثم ثابت إلى  
 الطمأنينة والسلام وطرحت كل ما كان يعتل في نفسها من  
 الأوهام وأوت إلى روحها ذات ليلة فاحتضت عودها وحلست  
 تعبه صوتاً بعد صوت ، وتثقل به في مجالى الأسس مرحلة بعد  
 مرحلة . وعنت .

دع السحوم لطرفي يعيش بها وبالعريمة فامهص أيها الملك  
 إن النى وأصحاب النى هـوا

عن السحوم ، وقد أنصرت ما ملكوا

وهب الملك واقعاً فداها منها وهو يقول

— لله أنت يا شجرة الدر ! هالله إلأما حدثيني من أين لك  
العلم بمكنون صدرى !  
فاستصحت وقالت

— لأننى من ذلك الصدر يا مولاي فى أرحب مكان !  
وسرى عن الملك ما كان ينتابه من القلق والريبة مد استمع  
إلى حديث أنى رهرة المعجم فى قلعة سبجار فساء ظناً بولده  
وبروحته ومحاشيته جميعاً ، وعجب لنفسه كيف اطمأن إلى  
حديث ذلك الشيخ المكهوف وأبكر ما تراه عيابه فى روحه من  
صدق الانخلاص وحسن المودة وكريم التقدير ! ألاها — فيما رعم  
المعجم المكهوف — تسعى إلى العرش وتلتمس الأسباب إلى السلطان  
وتصطلع من بطانته من تصطلع لهذه العاية باسم ولدها ؟ وماذا  
يريه فى ذلك وإمها لروحه وأم ولده ؟  
وعاد ما بين الروحين إلى الصفاء والمودة !

## ٧

وبلع الملك الصالح محيشه دمشق . فتلت يتطرها ما يكون من  
أمره وأمر أمراء الأيوبيين فى الشام . وما يأتيه من أساء  
القاهرة

وكان العادل فى مصر قد ساء سيرة وفسد سريرة وأسرف فى

بذل المال حتى أوشكت أن تنفذ خرائثه ، وقد عليه أصحابه على رأيه فأعطاهم مقادته بصرفود الأمر في الدولة كيف يحلوهم ليفرغ لشهواته ومادله . واطرح أمراء أبيه وأقصاهم عن السلطة وأمعن في مطاردتهم والميل عليهم ، وترامت إليه الأبناء بحركة أخيه الملك الصالح نجم الدين فقصص على أصحابه واستصحب أموالهم وألزمهم دورهم أو ساقهم إلى معقل الأسر ، وقصص على الأمير فخر الدين بن الشيخ ، وإياه وإخوته يوثق لأعظم أمراء الدولة حرمة وأرفعهم منزلة . إذ كانوا - فوق مكانتهم في العلم والدين وماضيهم المجيد في خدمة الدولة - إخوة أبيه الملك الكامل بالرضاع وكانوا أحظى لديه من سائر أمرائه وأدنى إلى السعير منزلة .

وضاق الناس بالعاذل وثقلت عليهم أيامه ، فتوجهوا بنقلهم إلى المشرق يؤملون أن يطلع عليهم من هناك من يخلصهم من نعي ذلك الملك الصبي !

وترادفت الرسل على الملك الصالح نجم الدين أيوب على أن طائفة من أمراء الأيوبيين بالشام كانوا يطمعون في عرش مصر . منهم من يستعلن ببيتهم ومنهم من يستحى . وكان أكثرهم سعياً إلى تلك العاية هو الناصر داود - ابن عم الصالح - أمير الكرك والشوبك وما يليهما من أرض الأردن .



وكانت روحه ست الملك الكامل ، فاصططع أسلوباً من السياسة بين الأخوين المتنافسين على عرش الأيووية إن لم يبلغ به ما يؤهل من الوصول إلى العرش فحسبه أن يكون له عرش الشام خالصاً

وراح الناصر يتوعد إلى الملك الصالح بحم الدن ، وإن الرسل والرسائل لتترد بينه وبين العادل في مصر ، وانحاز إليه طائفة من أمراء الشام ، وتبقى على الولاء للعادل أو للصالح طائفة . وآثرت طائفة ثالثة أن تعمل لنفسها أو تعزل الطائفتين جميعاً . وعص الميدان الشامى بأصحاب المطامع

كان الملك الصالح مابلس ليس بينه وبين الطغر إلا مرحلة ولم يكن معه ثمة إلا طائفة قليلة من عسكره ، على حين كان ساثر جنده مبشرين في مدائن الشام يوطئون لمولاهم سبيل الوصول إلى غايته . وكان القمر يسطع في السماء قد أوشك أن يصير بدراً ، وقد عكف المؤمنون على صلواتهم ، طيبة نفوسهم قريرة أعينهم قد امتلأت قلوبهم بشراً ومسرة . فقد كانت تلك ليلة الثاني عشر من ربيع الأول ، ذكرى مولد النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم وعلى حين عملة دوى بغير الحرب ، فهب الملك الصالح وأصحابه إلى آلة حربهم يطبون أن قد طرقتهم خيل



الصلبيين . ولم تكن إلا مكيدة مبيتة من الناصر للايقاع بالملك الصالح نجم الدين . فما كاد يرز من حيمته إلى العراق حتى أحاط به طائفة من حشد الناصر فاقتادوه على بركة بلا سرج ولا ركاب يعدون به السير في البادية إلى قلعة الكرك ، واقتيدت معه امرأته وولده وقليل من صحابته . وألقى بهم في عيابة القلعة أسارى لا حول لهم ولا حيلة . وأبلغ البأس إلى العادل في مصر وكتب إليه الناصر يقتضيه الثمن ١

وأقيمت اثريبات الملوكية في القاهرة فرحاً بخذلان عدو السلطان العادل وذهاب أمره

على أن العادل لم يكن ليظمن ويهدأ بآله . وعدوه ما يزال حياً ولا سبيل له عليه . فبعث إلى الناصر مال حم على أن يسلم إليه أخاه . ولكن الناصر لم يكن ليحده المأل عن أمه ، فبعث إلى العادل يطلب إليه أن يدع له عرش الشام خالصاً قبل أن يسلم إليه أخاه ، وترددت بينهما الرسل والرسائل أشهراً ، والملك الصالح في معتقله لا يكاد يجد كهاية من الطعام والشراب وراحة الحب . ولا يكاد يخلص إليه شيء من أساء ما يحرق وراء أسوار القلعة . فلولا ما تحاول شجرة الدر أن تقدم إليه من أسباب التسمية والمسرة ، ولولا ما يسمع من حديث صاحبه المراء زهير . وما يرى من مظاهر إحلاص الطائفة القليلة من

الممالك الدين صحوه إلى معتقله - لصاق بحياته فزهقت

نفسه

..

وافتقد ممالك الأمير في الحصن ذات صاح صاحبه  
بيرس فلم يحدوه . فانتابهم القلق وطوا الطول ؛ ودرى بمعينه  
الملك الصالح فراد قلقاً وهماً ، وكانت حهان ماشطة الأميرة  
شجرة الدر أشد الجميع قلقاً وأكثرهم هماً ، فلم تطعم شيئاً مد  
بلعها البأ وانطوت على نفسها حريية دامعة العين لا تحف إلى  
خدمة ولا تحب بداء فرد واحد من هذه الأسرة الملوكية التي  
أحبط بها في هذا المعتقل كان يبدو هادئ النفس مطمئناً كأنما  
لا يعنيه شيء من عياب ذلك المملوك الناسل ولا يخطر من  
أمره في شيء . تلك هي شجرة الدر

ورفعت حهان عينيها إلى مولاتها وهمت أن تقول شيئاً ثم  
أمسكت وطأطأت رأسها في انكسار وحر ، وأحست الأميرة  
ما يعتلح في نفس حاريتها فأدركتها رقة وهمت أن تقول لها شيئاً  
ثم أمسكت كذلك ، وتدابرتا فصت كل منهما إلى طريق  
وعلى شفتيها كلام لم تسمعه أديان

ومصت أيام قبل أن يعود بيرس فتطمش الحواطر وتهدا الطول .  
ولكن بيرس مد عاد من عييته تلك لم يتحدث إلى أحد ولم يحاول

أحد أن يتحدث إليه أو يعرف فيم كان عيابه ولم عاد . . .  
وهذا وحيب القلوب إلا قلباً واحداً كانت تتوزعه الطوبى  
والأوهام . ذلك قلب حهان ماشطة الأميرة ، فلم تكذ تطمش  
على سلامة صاحبها حتى أحد لها المكر مداهب أخرى من  
القلق والرغبة وطبت به طوبى كل أنثى ممن تحب

وكأما أحست شجرة الدر بما يعتمل في نفس حاريتها  
وقالت ناسمة

— ليهك يا حهان عودة بيرس موقفاً من سفارته ، وإيه  
لحقيق بأن يؤدي عاجلاً ما عليه من الثمن قبل أن يطمر بأميته  
العالية ويجتمع شمله ممن يحب ، في دار على الليل

قالت حهان وقد سرى عنها ما بها ورفت على شعيتها  
ابتسامة رصا واطمئنان

— شكراً يا مولاتى ، إبنى وبيرس لخليقان بأن سدل دما  
في سبيل مرصاتك ومرصاة مولانا الملك الصالح

في مساء ذلك اليوم كانت امرأتان حالستين وحيها لوجه  
في عرفة قد حلت إلا مهما ، يتادلان الحديث في همس  
قالت إحداهما

— قد حاءنى النبأ يا حاتون بما تم عليه العهد بين روحك

الناصر والعادل سيف الدين ، وإن نجم الدين لأخوك يا عاشورا ،  
وما أظن نفسك تطيب بأن يسلمه روحك إلى أخيه العادل  
فيسمك دمه أو يلتقي به في حب القلعة حتى يموت صبراً .

قالت صاحبها

— نعم ، ولكن من أين لي أن يقتنع الناصر بما أدعوه إليه ،  
وقد وعده العادل بأن يكون له عرش الشام إذا أسلم إليه أخاه ،  
وإن الناصر — كما تعلمين — لخريص على أن يبلع هذه المنزلة .

قالت شجرة الدر

— وترين العادل أهلاً لأن يبي له عما وعد . فأني له ذلك  
وليس له اليوم سلطان على الشام وإنما هي تحت يد الصالح  
إسماعيل ، فليستخلصها العادل من يد صاحبها قل أن يعد  
بها الناصر ، وإلا فإياها موعدة إلى غير وفاء !

فأمسكت عاشورا حاتون روحه الناصر لحطة تفكر ، ثم  
قالت

— وماذا يعزى الناصر باطلاق سراح نجم الدين وليس في  
يده ما يؤديه إليه ثمناً لحريته ؟

قالت شجرة الدر

— وهل رأيت أحداً الصالح أهلاً لأن يكث ما وعد ؟  
فسيستخلص الشام من يد الصالح إسماعيل ، وسيكون له عرش

مصر ، وتحتضن في يديه السلطات ، وإبه حيثد الخلق بأن  
يحق للناصر مأملة ويقاسمه العيمة ، فتكون لها قلعة الجبل ،  
ويجلس الناصر على عرش بني أمية في دمشق

سرحت حواطر عاشورا حاتون وعلتها على رأيا أمانى الملك  
والسلطان ، واطمأنت إلى ما وعدتها شجرة الدر ، فهتت  
تحاول مع روحها الناصر تديراً لاطلاق سراح أحبا الملك  
الصالح نجم الدين

وانتصف رمضان ولم يرل نجم الدين حبساً في قلعة الكرك ،  
لا يكاد ينشق روح السيم أو يرى وجه السماء إلا أن يأذن له  
رريق حارس الباب ، فلولا ما يسرى عنه من حديث روحه  
شجرة الدر ، ومن أطفاف أخته عاشورا حاتون روحه الناصر ،  
هلك عملاً .

وهن الأمير دات مساء لصلاة العشاء ، فلما أدى الفريضة  
وصلى التراويح جلس في مصلاه يذكر الله ويدعو ، وعلى مقربة  
مه جلست شجرة الدر صامته وقد تعلقته به عياها لا تكاد  
تطرف وإن رأسها ليموح بما فيه من حواطر ، وكان الأمير  
يتلو « قلما يا ناركوي برداً وسلاماً على إبراهيم »

فانتسمت شجرة الدر وقالت

— برد وسلام ، وروح وروحان ، وحنة نعيم !



وكف الأمير عن التلاوة ورفع إليها عييه . واستطردت  
 — فهل ذكرت يا أميري أسا من هذه القلعة في البلد الذي  
 أعدت فيه النار لإبراهيم فلم تكس عليه إلا برداً وسلاماً ، وباء  
 أعداؤه بالحدلان !

فاستدثر الأمير وقال باسمياً

— نعم ، فليت كل نار تشب للعدوان في هذا البلد تحور  
 برداً وسلاماً ويؤوه المعتدون بالحدلان  
 قالت

— لعل الله أن يستحيب لك . فهل ذكرت إلى ذلك أمها  
 ليلة القدر سلام هي حتى مطلع الفجر . لأما ليلة السابع  
 عشر من رمضان ،

فابسطت نفس الأمير وقال في شر واطمئنان

— لك الله يا أميرتي ، فلولاك

وسمع طرقة على الباب فأمسك . ودخل حاحمه يؤدبه بمقدم  
 ابن عمه وآسره الناصر داود

وأطلق سراح الأمير منذ الليلة ، ليأخذ طريقه إلى مصر  
 فيستخلص عرش الأيوبيين من يد العادل ويدع للناصر عرش  
 الشام ويصف الحراج

والتأم جيش الملك الصالح نجم الدين بعد شتات وسارع



إليه حنّده من كل صوب . ومضى في طريقه فلم يتوقف حتى  
بلغ العريش ، فأقام قليلاً يتأهب للمرحلة التالية ، ثم استأنف  
مسيره إلى بلبس

وحقت الهزيمة على العادل فاقبض أسيراً إلى قلعة الجبل ،  
وحلّس الملك الصالح نجم الدين أيوب على عرش أبيه ودانت  
له البلاد . وبلغت شجرة الدر ما كانت تأمل وقاسمت روحها  
المحد والسلطان . وذهبت الملايين باسم أم حليل روحه الملك  
الصالح أيوب

وفسد ما بين الناصر والملك الصالح بعد أن بلغ العرش .  
فحرق معاضاً له وهو يعرض بنان الدم . وعاد إلى إمارته  
الصغيرة في أرض اللقاء . لم يطعم عرش الشام ولا عرش اليمن

## ٨

— ماذا تقول يا حسام الدين

— هو الحق يا مولاي ، فليس في حراسة الدناير إلا دينار  
واحد ، وليس في غيرها من الخزائن إلا ألف درهم ذلك كل  
ما نفي في حراسة الدولة يا مولاي

قال الملك معيظاً حقاً لا يكاد يصدق ما سمعته أدناه

— انظر جيداً يا حسام الدين . فقد كان في حرائرنا مدد

قريب يوم مات الكامل ستة آلاف ألف دينار ( ستة ملايين )  
وعشرون ألف ألف درهم ( عشرون مليوناً ) . فأين يذهب كل  
ذلك في بضعة عشر شهراً ؟

قال صاحب بيت المال

— ذهب كله يا مولاي إلى بيوت أصحاب العادل ، وقد  
رأيت عمال الحرابة لعهدده يحملون المال إلى أصحابه في الأقفاص  
على رموس الحماليين

— إذن فادع لي كل من تعرف ممن ناله شيء من مال  
السلطان لندير أمراً وأمره

ومضى يوماً . والتأم في القاعة الكبرى من قصر القلعة  
مجلس حافل يصمم عديداً من الأمراء والقضاة ورؤساء الحند  
ومقدمي الممالك وكل دى حاه ومال من بطانة العادل ،  
وتوسط الملك الصالح المجلس ، فدار نعييه في وجوههم فرداً فرداً  
قل أن يتوجه إليهم بسؤاله في لهجة التأنيب والملامة

— لماذا خلعتم سلطانكم وكان له في أعناقكم حق الطاعة !  
ونظر المحتمعون بعضهم إلى بعض كأنما يعجبون أن يؤنبهم  
على أن أتاحوا له خلع أحيه أن يرتقى إلى العرش ، ولكمهم كان  
لا بد أن يحبوا . فقال قائلهم

— قد خلعناه لأنه سفيه لا يحسن تدبير الأمر ولا سياسة الملك !

### قال الملك ناسياً

— فهل علمتم وفيكم الفقهاء والقضاة وأصحاب الرأي أن  
تصرف السفيه ينفذ ، فردوا على الدولة ما أحدثتم من يده . إذ  
كان السفيه لا يملك أن يهب ولا أن يشتري ويبيع ،  
وعاد المجتمعون يطرعهم إلى بعض ، ثم أذعنوا راضين  
أو مكرهين ، وأحصى الملك ما ردوا إلى الخزانة من المال ، فإدا  
هو قد بلغ ثمانمائة ألف دينار . وألى ألف وثلثمائة ألف درهم

\* \* \*

### قالت شجرة الدر

— بلى ، قد أذعنوا يا مولاي لأمرك وأعطوك مقادتهم .  
وكانوا من قبل أصفياء العادل وبناته فامضوا عنه حين زال  
عه الحياه والسلطان فلا يملك لهم نصراً ولا مصرة ، وإني لأحشى  
هؤلاء الكرد أن يحامروا عليك كما حامروا على أخيك من قبل  
وكانت في أعناقهم له البيعة . وهؤلاء أساء عمومتك في الشام  
لا يريدون أن يدخلوا في طاعتك راضين فلا يرال فيهم من  
يحاربك طمعاً في الاستقلال عما تحت يده من بلاد الدولة ،  
وإن مهم لمن يستنصر بالصليبيين ليكسر شوكتك ويهل جندك ،  
وقد رأيت يا مولاي بلاء هؤلاء الترك من مماليكك في حرب العدو ،  
فإن شئت كان لك حيش مهم لا يثبت له حيش في الأرض ،

وثبت دعائم ملكك فلا تخشى من بعدُ تمرد الأيوبيين ولا  
انتفاص الكرد

قال نجم الدين

— نعم الرأي ما أشرت به يا أم حليل ، وسأشرع مد  
العد في بناء قلعة بالجزيرة تتسع للآلاف من الممالك يكونون  
للدولة سداً وقوة

ولم يتمهل الملك في تعيد ما اعترم ، هي قلعة الجزيرة  
واتحد له ثمة قصرأ ، وحشد في برج القلعة من الممالك جيشاً  
دا عدد وقوة ، وجعلهم طبقات وفرقاً على كل فرقة منهم مقدم  
من حاصة ممالكه يتولى أمرهم ويظهر في مصالحهم . وأقطع  
هؤلاء المقدمين أرضاً ورتب لهم ألقاباً ووظائف ومسحهم سلطة الأمراء  
وقوى شأن الترك في الدولة بقدر ما ضعف شأن الكرد ،  
وأثبت جيش الممالك قوته وبأسه في عدة معارك مطهرة .  
وبررت أسماء الأمراء . فارس الدين آق طاي . وركن الدين  
بيرس ، وسيف الدين قلاوون ، وعزالدين أيلك الحاشكير ،  
إلى عشرات من الأمراء داع لهم صيت وحاه وكانوا مد قريب  
أرقاء في يد الحاس يساوم عليهم بالمال واختصت أسماء الأمراء  
العظام من بي أيوب فلا يكاد يدكرهم ذاكر وكان لهم الجاه  
والعز والكرامة ،

وثبتت دعائم الدولة وقوى شأن الملك الصالح محم الدين  
أيوب . لولا بعض المتن التي يتيرها أمراء الأيوبيين في الشام  
وفلول الصليبيين على الساحل

وحلست شجرة الدر في شرقه مطلة على النيل من قصر الحرية  
تسرح الطرف على امتداده . فترى السحيل مثقلة بأحمالها  
تتايل مع السيم ولها حفيف يتحاوب . وتشمس الأصيل مبسطة  
على صفحة الماء في النيل وقد امتدت على شاطئيه المزارع  
الخصر الناصرة مرصعة بألوان الزهر . والصحراء الممتدة إلى  
حيث لا يدرك الطرف لها عاية ولا نهاية وقد قامت عليها  
الأهرام منتصبة شامخة تهرأ بأحداث الرمس فكأما أحدث  
هذه المناظر الماتنة للأميرة ذكرى بعيدة . فتفست نفسها عميقاً  
وراحت تدبدر بأعنية عنيقة قد طال بها العهد .

— حذا دور على النيل

وتحولت عن الشرفة قليلاً لترى بين يديها ماشطتها جهان  
قد سرحت نظرتها إلى بعيد وثى عيبتها طمأ وحين . وتدكرت  
الأميرة موعداً بينها وبين الحارية قد طالت عليه السون .  
فأحدثتها على الصنارة رقة ومالت عليها تربت كتمها قائلة

— ليهلك يا جهان ما بلع فتاك من المجد والخطوة لدى  
مولاه . وقد حق له ولك بما بدل وما صرت على الوفاء أن



تقطعها ثمرة هذا الحب . فاذا انقضى هذا الشهر وحن موعد  
وفاء النيل فسأشهد ويشهد الملك رواف حاريتة حهان على الأمير  
ركن الدين بيبرس ، وتكون لكما دار على النيل . .

فاعرورقت عينا الفتاة ومالت على يد مولاتها تقبلها وتبذلها  
بالدمع شاكرة لها ما حبسها وحت فتاها من النعمة

ولم تم الفتاة مد تلك الليلة إلا على ذكرى ولم تستيقظ  
إلا على أمل . وأرقها الرحاء الداني كما كان يورقها اليأس  
البعيد ، فانت تعد الليالي وترقب القمر في سراه وتستنبيء ماء  
النيل في محراه تحت شرفة القصر عن موعد الوفاء

ووفي النيل في ميعاده ولكن المقادير لم تف للفتاة بما وعدت ،  
فقد كان القصر والقلعة والمدينة كلها يوم وفاء النيل في حزن  
شامل ، وقد لبس الجميع البياض حداداً على موت الملك المصور  
خليل ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب . واحتحت شجرة  
الدر في مقصورتها تنكي حتى تشرق بالدمع على وحيدها  
الذي كانت ترقب له أعظم الآمال !

وبكت حاصته حاتون ما بكت أسفاً على ما كانت تأمل  
أن تلعه من الخطوة والسلطان يوم يلع الملك الصغير أشده  
ويجلس على عرش أبيه !

وبكت حهان الماشطة حتى قرح الدمع أحماها لأن القدر



لم ينسأ في أجل الصبي حتى بنى السيل وترف إلى فتاها الذي  
ترقب مواعده منذ سنين ١ .

وبكى أمراء الممالك لأن مولاتهم التي يضمرون لها الحب  
والولاء ويديون لها بالطاعة قد مات وحيدها الذي كانت تهينه  
لولاية العهد، وسيكون ولي عهد المملكة من بعده أميراً آخراً من أمراء  
بني أيوب لا تربطهم به آصرة وإيس لهم عليه يد تقتضيه لهم الوفاء ١  
وحجم على القصر والقلعة والمدينة كلها حرم من الحر والأسرى  
والكافة

### قالت شجرة الدر

— ليس ما في والله يا مولاي أن حليلاً قد مات وحرمت الأس  
به . ولكي أحشى على هذه الدولة أن يعرط عقدها إذا آل  
الأمر بعد عمر مديد إلى ولدك الأمير عيات الدين وليس فيه  
كياسة تؤهله لولاية العرش

فتأوه بحم الدين وحصره بثه . فأطرق لحطة يفكر ثم رفع  
رأسه وهو يقول

— لا تذكرى عيات الدين للعرش يا أم حليل . فما أراه  
يصلح له أو يستقيم أمره . حسه أن يطل في حصن كيما أميراً  
على ما يليه من بلاد المشرق ، فإني لأحشى إن نارعته نفسه

••

، العرش أن يسعى يقدمه إلى حبيه ويحترم في الشاب !  
قالت شجرة الدر

— مولاي ، ولكن تراث الخالدين من بني أيوب أمانة  
بين يديك . فهلا عهدت إلى أحد من أهلك يحفظ الأمانة  
عندك ؟

قال الملك وقد بدا في عييه انكسار وحر  
— فقد عهدت إليك يا شجرة الدر أن تسلمني البلاد للحليمة  
من بعدى . فلا يتارعها الأمراء حتى تذهب قوتها وتطأها  
حيل الصليبيين

قالت مواسية

— عمرك الله يا مولاي حتى تحب ولياً للعهد تشبه على  
عيك وتهيئه لحمل أمانتك . ويمتد بك العمر حتى تراه  
يحكم باسمك فيحس الحكم والسياسة . إنك يا مولاي لم تر  
في ربيع الحياة، وإن الله لأثر بك !

٩

جلس الأمير ركن الدين بيبرس ساهماً قد تورعه المكر  
وصاقت به مداهمه ، أكلما حيل إليه أنه قاب قوسين أو أدنى  
مما يأمل تذكر له خطه واعتصت سبيله المقادير

إنه لم يزل منذ سبى يرقب ذلك اليوم الذى يزف فيه إلى  
فتاته ليسعد إلى حوارها فترة من العمر فى دار على الديل تعنى له  
ويستمع إليها هائناً شواد ، ولكن ذلك اليوم لا يريد أن  
يأتى . ولعله لا يأتى أبداً . فكلما بدا له أنه قريب قريب على  
مد يده أو على مد عينيه ، ماحت من حوله الأحداث فاحتملته  
أمواجها إلى بعيد لا تناله يد ولا تمتد إليه عيان ، فلا  
يرال مقللاً مدبراً بين الرحاء واليأس . وفتاته المحبوبة من  
دونها أسوار وحب . قد حالت عيرة الأمير وثقاليد القصر  
بينه وبينها فلا يكاد يراها أو يتحدث إليها ويستمتع إلى حديثها  
إلا فى الندرة النادرة وفى العام بعد العام

ولنه لى مجلسه داك ساهماً يفكر إاد مثل بين يديه الأمير  
عز الدين أيبك يدعوه إلى مقابلة شجرة الدر

وحف إلى مجلسها وفى نفسه أمل ، وكانت — لم تر —  
فى بياض الخداد على وحيدها المصور حليل ، وقد التفت بمصل  
ردائها لا يكاد يبدو من وجهها إلا عيان ساحرتان فيهما أمر  
واحب الطاعة . ووقف باب مقصورتها مستأنياً حتى تأذن  
له ، ثم دخل . وكانت حهان إلى حاب مولاتها

قالت

— لأمر ما دعوتك يا أمير ركس الدين

ثم نقلت عيبيها بين الأمير وصاحته ، ولكن الأمير  
وصاحبه مما عليهما من الوجد لم يكوبا يريان أو يسمعان  
وانتسمت الأميرة واستأنست

— قد كنت أرحويا بيرس لو أن القدر قد وى لى ولكما ،  
ولقد حملت يا أمير كثيراً من هم الدولة ، فلست أكلفك إلى ذلك  
أن تحمل هم من نقى ومن مات ، فان شئت حلوت عليك  
عروسك عدداً أو بعد عد إن طاب لك التعجيل

ورف قلب حهان بين أصالعتها روفة الطائر ، وأنعص  
بيرس رأسه حياء وهو يقول فى تلعم

— لا رلت ولاية العمة يا مولائى ، وما كان لى ولا لحيان أن  
يلتمس أسباب المسرة ولا ترال فى القلب حشرات على فقد  
مولانا الملك المصور خليل ١

وبرق الدمع فى عيى الأميرة ، وعص بيرس على شفتيه ،  
وطأطأت الفتاة رأسها فى انكسار

قالت شجرة الدر

— فليكن رفاكما إدد عداة مقدمك مطعراً من حرب  
صاحب دمشق ، ويومئذ أسأل مولائى الملك الصالح أن  
يوليك إمارة من إمارات الشام تتمتع فيها أنت وعروسك حهان  
مما تأملان من العمة والسلام ، حراء ما بدلت ، وما صبرت

قال بيرس هادئاً

— في طاعتك يا مولائي وطاعة مولاي الملك الصالح  
يضيّب لي أن أدلّ دمي  
ثم حيا واتحد طريقه إلى الباب وبين قلبه وعقله صراع  
تكاد نظرة عييه تكشف سره !

•

وتهبأ الملك الصالح للحروح بحيشه إلى الشام ليقصى على  
ما بقي من فتنة أصحاب المطامع ويوطئ لعرشه ، وصحته شجرة الدر  
وريرة ومشيرة ومؤسسة ، وما كان له أن يحلبها في القاهرة ويمص  
إلى سمر عبيد ، وكان مقدم حيشه فخر الدين بن الشيخ ،  
يؤارره من أمراء الجند عر الدين أيك ، وفارس الدين آق طاي ،  
وركن الدين بيرس ، وسيف الدين قلاوون ، وترك في القاهرة  
بائنه حسام الدين مهنوضاً في الحكم حتى يعود

وتوالت هراثم العدو وتهاتت معاقبهم معقلا وراء معقل ،  
وأوشكت أن تطهر الشام من فلول المتمردين على عرش الملك  
الصالح أيوب

ثم جاءه البريد ذات صباح برسالة ، فلم يكذبص حتامها  
حتى حلى الميدان وأرمع المآب ، وترك على دمشق بائنه الصاحب  
جمال الدين بن مطروح



وبات الملك على الطريق إلى مصر متعباً مهوكاً قد هاحت  
به علة ذات الصدر إلى قرحة في مأنصبه لا تزال تدمى  
قالت شجرة الدر مترفة

— متعبك الله يا مولاي بالصحة وأعم بك ! فهلا أحررتني  
ماذا بك ؟

قال متحلاً

— أراي بحير يا شجرة الدر ما بقيت بحاي . وإنما هو ما  
يعتادني من ذات الصدر ومن تلك القرحة إذا طرقي هم ، وقد  
كنت أطن أولئك الصليبيين قد تابوا إلى الرشد بعد ما بالهم  
من الهزائم في كل ما حاصوا من المعارك . حتى حاءني الريد  
عهم اليوم ساء حديد . فقد أقلعوا من حريرة قرص منة قريب  
على قصد دمياط على رأس حيش لم يجتمع لهم مثله من قبل  
قالت

— هو عليك يا مولاي . فوالله لا يكون إلا ما تقر به عيماً .  
ويؤعون بالحسرات في حملتهم هذه كما ناءوا في كل ما سبق من  
حملاتهم العاشمة ، وإن دمياط لأمع مما يؤمل هؤلاء الصليبيون .  
وإن بها من الحيد والعتاد وأسباب الحرب ما يدفع عنها ويرد  
إلى البحر كل من تحدته نفسه باقتحامها ، وحسبك من فيها من  
بي كنانة الأجداد



برح الداء بلويس التاسع ملك فرنسا حتى أشق على الموت  
 وحرار الأطباء في علاجه . فانه لم يعمد من عمرات المرحوم  
 إذ ألقى إليه أن يقسم إن يرى من دائه ليقوم عن رأس حملة  
 صليبية عظيمة إلى المشرق قرباناً إلى ربه وشكراً لعمته ثم لم  
 يلبث أن يرى فأحد في تصيد ما اعترم . فجمع جيشاً لم  
 يجتمع مثله قط . فأبحر به من مرسيليا على ألف وثمانمائة سفينة  
 قد احتشمت له من بيرا، وحووة والسدقية وغيرها من بلاد  
 الساحل . واتحد سبيله إلى مصر

وتلبث الجيش فترة في قبرص حتى يستكمل أهله قبل أن  
 يستأنف سيره إلى دمياط ، وبلغت أساؤه الملك الصالح أيوب ،  
 فأسرع عائداً إلى مصر ، واتحد المصورة مركزاً للقيادة العامة .  
 وبعث بالأمير فخر الدين بن الشيخ إلى دمياط على رأس جيش  
 كبير لتدبير أسباب الدفاع

ولم تكن هذه أولى حملات الصليبيين على دمياط ، إذ كان  
 موقعها على مصب الفرع الشرقي لليل معرباً لهؤلاء الغزاة على

قصدتها ليركبوا الليل منها إلى القاهرة فلا يعترض سبيلهم شيء  
 فيما يرفعون دون امتلاك البلاد، على أن دمياط كانت من المباحة  
 وعظم الاستعداد بحيث لا يسهل على العدو أن يقتحمها دون  
 أن يتعرض للهلكة وبعد حصار طويل يستعد قوته وجهده ،  
 وقد ثبتت لحصار الصليبيين ذات مرة منذ بصبح عشرة سنة  
 فلم يستطيعوا أن يقتحموا أسوارها إلا بعد سبعة عشر شهراً ، ولم  
 يكن لها يومئذ من المقاتلة قوة ذات شأن . فأتى للصليبيين  
 ما يأملون منها اليوم . وفيها من فيها من الأمراء والحمد وأبطال  
 بي كنانة ، وعلى رأس قوات الدفاع الأمير فخر الدين بن شبح  
 الشيوخ ٩

كان الأمير فخر الدين هوكل من نبي من دوى الحسب الرفيع  
 من أمراء دولة بني أيوب في مصر . وكان أميراً مهيباً له وقار  
 وسمت وفيه أريحية وبحوة . وله مشاركة في العلم وماض في  
 الجهاد ووجاهة بين الناس ، وكان إلى ذلك كله أثيراً لدى  
 الملك الصالح ، إذ كان أحماً بالرصاع لأبيه الملك الكامل ، وله  
 عليه يد إدهياً له السبيل لاعتلاء العرش بعد حلع أخيه العادل ،  
 وقد أدته مكانته تلك من الملك فلا يوصد دونه باب ولا يعترض  
 سبيله حجاب . وكان يتمتع من الجاه والخطوة لدى شجرة الدر

بمثل ما يتمتع به لدى مولاها . إذ كانت تقدر له بلاءه في خدمة الدولة وتعرف مكانه . فلما برح الداء بالملك الصالح واقترب مواعده ، لم تجد شجرة الدر حولها من الأمراء من تؤهله صفاته لمؤازرتها فيما تصطلع به من الأعباء غير الأمير فخر الدين . فكأما أرادت أن تمهد له السبيل إلى أمل تأمل أن يبلعه في يوم قريب ، فأشارت على الملك أن يولييه قيادة الجند

على أن خطوة الأمير فخر الدين لدى الشعب ، ولدى الملك والملكة . قد أثارت غيظاً كظيماً لدى أمراء المماليك ، فتداعت أمانيهم . ولكمهم كانوا من الولاء والطاعة لمولاهم ومولاهم بحيث لا يملكون إلا الرضا والتسليم ، وكأما أحسن فخر الدين بما يصطرع حوله من نوارع الخير والشر ، فامتطى فرسه على رأس الجيش إلى دمياط وفي نفسه قلق وريبة ، لا يدري أين تنهى به المقادير ولا كيف تكون عاقبة أمره وأمر الدولة ، وهذه صحة الملك ترداد كل يوم . سوءاً فلولا ثبات حباه وقوة نفسه لأثنتها لمصر في هراشه لا يملك أمراً ولا مهياً وحقت على البلاد الهرطقة ١

وبرل العدو على الساحل . فما كانت إلا كرة بعد كرة وتقهقرت قوات الدفاع وألقى الرعب في قلوب الحامية فلم تثبت لهجوم الصريجة

وأحلت معاقلها ، وحاس العدو حلال الديار يهتك ويفتك  
ويسفك ، ومضى الجيش المصرى على وجهه مولياً أدباره لا يقف  
فى سبيله شىء ، ووراءه الآلاف من أهل المدينة رجالاً ونساء  
وأطفالاً يتحطمهم الموت على الطريق وقد امتلأت الأرض  
بجثث القتلى وأحساد الحرحى تظوها أقدام الفارين وتحطمها  
سوابك الخيل ، واستولى المريجة على دمياط بلا كبير عناء ،  
لم يحمها سوكنانة ولا جيش فحر الدين !

وبلع الفاروق المصورة ، وشاعت ألباء الهريمة القاصمة  
وتناقلتها الطير إلى مختلف البلاد . وارتاع الملك ولكنه لم يفقد  
ثباته ، فأمر بأمراء الحشد فعلقوا على الأعواد ، وشق حمسين  
أميراً من بنى كنانة . وأمر أن يحمل إليه رأس الأمير فحر  
الدين

قالت شجرة الدر

— وماذا كان يملك فحر الدين أن يفعل يا مولاي وقد  
احل بنو كنانة وانقص عنه عسكره ؟

قال الملك

— كان يملك أن يثبت على فرسه وحيداً حتى يدركه

الموت !

قالت

— ذلك حتى يا مولاي . ولكن من تراه يقوم مقام حجر  
الدين من أمرائك إن هلك . أفلا يشع له بلاؤه في خدمة  
الدولة مد كان وما حاص من المعارك الدامية ؟

قال الملك

— فقد وهبت لك دمه يا شجرة الدر !

قالت

— عمرك الله يا مولاي حتى تقتضيه ثم هذه المنة  
ولكن الملك الصالح لم يعمر طويلاً حتى يشهد بلاءه وحجر الدين  
في دفاع العدو ، مات في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧

•

العدو على الأبواب قد ملك ناصية الطريق ورابطت سمه  
في النيل وتوشك حيله أن تطأ أرض الوادي فتحوره من أطرافه ،  
والملك مسحى في فراشه قد أعمص عييه الاعماضة الأحيرة  
فلن يفتحها أبداً . ولم يول عهده أحداً يحمل راية الجهاد من  
بعده . وولده الوحيد بعيد في حصن كيما على حدود المشرق  
وليس له من الحرم وحسن التدبير ما يؤهله لولاية العرش في هذا  
الوقت العصيب . وأمراء بني أيوب في الشام يتواثون تواثب  
الصعدع يحيل إلى من يراه أنه نشاط وجهاد وما هو من ذلك  
في شيء . وكلهم يطمع في العرش وما فيهم أهلية لحمل



تعات العرش ، ودؤلاء أمراء الممالك لا يرال في دهم من  
 طباع الأرقاء وقد بلعوا مرتبة الإمارة . فان كلا مهم لا يرال  
 يطر إلى رميله بطره إلى الرقيق المحلوب ولا ينظر إلى نفسه ،  
 فأير يلع شأن دؤلاء وأولئك جميعاً إذا عرفوا أن العرش قد  
 خلا من سيده وأن رب التاح قد مات . وماذا يعمل العدو ولم  
 يرل في بشوة انتصاره الأولى ،

وأسلت شجرة الدر أحضان الملك الشهيد وشدت لثامه ومدت  
 على وجهه العطاء . ثم أعلقت من دويه الباب وأوت إلى حلوتها  
 تفكر

امرأة في رويق الصا قد فقدت رحلها  
 ملكة ذات سلطان توشك أن ترل عن العرش  
 قائد في المعركة قد أحيط به ويوشك أن يتحلى عنه عسكره  
 كل أولئك شجرة الدر . الرجل ، والعرش ، والبصر .  
 ثلاثة أهداف بعيدة يجب أن تحرص على بلوعها

وازدحت الصور على عيبيها متتابعة لا تعرف ما تأخذ منها  
 وما تدع ، واحتصرها الماصي القريب والبعيد ، وذكرت فقيدتها  
 الصبي الملك المنصور حليلاً آه لو كان اليوم حياً ! وتذكرت  
 إلى ذلك حديث أنى رهرة المعجم « ستلعين به العرش  
 يا مولاتي ، وتهتف باسمه الخلائق في شرق الأرض وعربها »

ولكن خليلاً قد مات . أفتباح لسوء الشيخ أن تتحقق على وجه ما فتبلغ العرش لأبها أمه ، وتهتف باسمه الخلائق لأبها تحكم باسمه ؟ . أدلك ما كان يعنيه الشيخ ؟ وماذا يجمع أن يكون ؟  
 الأبها امرأة ، فقد كانت سيدتها ملكة ترير وسيدة العجم فاطمة خاتون بنت طغرل السلجوقي . امرأة ، فأحسنت تدبير الملك والسياسة . لم تمنعها أوثقها أن تكون ملكة . ثم لم تمنعها الملكية أن تكون أنثى ، فحطت نفسها إلى السلطان خلال الدين بعد أن انفصلت عن روحها أربك

أين تذهب بها حواطرها الساعة ؟ ما لها ولهذا الحديث وإن عليها أن تدبر الأمر قبل أن يدرى العدو بمهلك الملك فيشتد أثره ثم تكون الطامة ، وتفقد الروح ، والعرش ، والمعركة جميعاً ، ومن يدرى ؟ فقد تفقد حياتها ، أو تفقد حريتها ، فتعود حارية كما بدأت يساوم عليها في سوق السبايا وأجمعت بيتها على أمر . فعشت تدعو إليها الأمير فخر الدين

— هذا العدو قد تحاور باب الدار يا فخر الدين ولا ملك على العرش ، وقد دعوتك لترى رأيك قبل أن يعرف العدو وتقع الكارثة

— الرأي ما ترى يا مولائي ، وإنك لأعلى عيماً وأحبر

بسياسة هذه الدولة وقد عاصرت أحداثها بصع عشرة سنة ،  
ولقد فقدت مصر ملكها الشهيد ولكنها لم تفقد حسن تدبير  
شجرة الدر

— ماذا تعنى يا فخر الدين ؟

— لست أعنى إلا ما قلت يا مولاتى ، فانك لأهل لاحتمال  
تبعاتها حتى تنحلى هذه العمة

— ولكنى امرأة يا أمير ، فمن أين لى أن أبلغ هذه المرة ؟

— وهل كانت الصاحبة صفية حاتون ست الملك العادل  
اس أيوب إلا امرأة . وقد حكمت مملكة حلب وديرت أمرها  
فأحسب التدبير والسياسة

— ولكن صفية حاتون يا أمير كانت تحكم باسم حميدها

الصبى صلاح الدين

— وباسم ولدك الشهيد الملك المعظم خليل تجلسين على

عرش مصر وتحكمين ؟

اعرورقت عينا الماكة الشابة وقالت فى صوت يحتلح

— ولكن خليليا يا فخر الدين قد مات ، لم يجلس على

العرش ولم يوص به لأحد من بعده

— وباسم من كانت تحكم يا مولاتى فاطمة حاتون ست

طغرل السلجوقى على عرش تبريز ، ومن قبلها حدثها ترکان

حاتون على عرش حوارم وحراسان ١ وهل كانت السلطنة  
رضية ملكة دهلي في الهد إلا امرأة وقد استقلت بالملك بصع  
سنيين ؟

— ولكننا في مصر يا أمير ، لا في الهد ولا في حراسان ،  
حيث تجد من أمراء آل أيوب أو من أشياعهم من يقول في  
غير تعريض هل كانت شجرة الدر في قصر الملك الصالح إلا  
حارية ارتقى بها السعد حتى بلغت منه مرة الروح وأم الولد .  
كيف تطمع أن تجلس على عرش فرعون ٢ ويسود يا أمير  
ما أفاقت شجرة الدر من برها عليهم وما بدلت للدولة وما تصمر  
من بية الإصلاح والخير

— يا مولائي ١ بالله لا تذكرى الآباء والأجداد . فمن أين  
لهم أن يعرفوا من كان أبوك . فلعله — لو عرفوه — كان أعرق  
أرومة من أيوب بن شاذي . وأنى لهم أن يسكروا عليك حقلك  
في ولاية العرش وقد جلس عليه كاهن من قرون ، لم يرده عن  
هذه المرة أنه عبد أسود أمي مشقوق الشفة لا يصلح للحمل  
ولا للمهنة ١

أشرق وجه الماكة بانتساءة رضا ، وهي تقول  
— صدق يا أمير . وإن شجرة الدر بما بدلت للدولة

وما تصمر من نية الإصلاح لأدنى مبرة إلى العرش من مثل  
كافور ، ولكن  
- مولاتى !

- إبنى امرأه ذات حجاب يا فخر الدين ، وليس يحمل  
نى ولا يسعى لى - بعد الملك الصالح - أن أتر إلى الرجال  
أو أشهد مجلس الحكم والمشورة

- إن أمراء دولتك يا مولاتى ليسدلون عليك الستر العالى  
من الإحلال والمهابة . فلو اتحدت أميراً منهم كبيراً لأمائك  
لكماك وجسك أن يردى إلى الرجال أو تسهدى مجالسهم .  
وإن أمره فى الهابة لمرود إليك وهستمد منك . وإن شئت  
يا مولاتى كتننت الحجاب بيبك وبينه على شرع الله وسنة  
ببيه . .

أنعصت المرأة رأسها من حياء ، ثم رفعت شامخة الأنف وقالت  
فى كبرياء

- فقد احترتك كبيراً لأمائى يا فخر الدين ، إن طاب لك  
أن تحمل هذه التبعة .

تعاقت على وجه الأمير ألوان شتى ، واصطرعت فى رأسه  
حواطر حمة ، وحصرته دكریات وأمانى ، وابهرت أنفاسه فلم يملك  
حوافاً سريعاً



### واستطردت الملكة

— ولكن علينا قبل ذلك كله يا أمير أن ندبر أمراً وأمر  
رؤساء المماليك وأمراء الحيد ، فانه ليدولى أنهم — وقد مات  
مولاهم وولى أمرهم — قد يرون من حقهم أن يستشاروا ، وقد  
بلغوا من الجاه والقوة مبلغاً يسعى أن يحسب حسابه  
قال فحر الدين

— ومادا يعنى هؤلاء المماليك يا مولاتى من ذلك الأمر ،  
وإنما هم حد وحاشية ، ليس عليهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا !  
— بلى . لهم حد وحاشية ، فهل سبت العدو الذى  
يترص بنا يا أمير ؟ فان علينا أن نسترصى هؤلاء الحيد قبل أن  
نقتصيم حق الولاء والطاعة ، لطمش إلى صدق بلائهم فى  
قتال ذلك العدو

ثم أطرفت الملكة هبته تفكر . وعادت تقول  
— وإنى لأحتسب إلى ذلك أن يدري أولئك الصليبيون ممهلك  
الملك الصالح . فيبتلوا الفرصة قبل أن يستتب لنا الأمر ،  
ويتوعلوا فى البلاد فلا نستطيع لهم دعماً ، والرأى عندى  
أن نكتم ذلك السأ فلا يدري به أحد ولا يعرفه العدو حتى  
نستطيع تدبير أمراً معه  
قال الأمير مرتاناً

— ويمكن ذلك يا مولائي ؟

قالت .

— لا عليك من ذلك يا فخر الدين . ودع لى تدبير  
الأمر كله

واستسر البأ فلم يدره إلا بصعة نهر شجرة الدر ، وفخر  
الدين ، والطبيب هبة الله ، والخادم سهيل ثم الأمير  
حسام الدين بن أنى على نائب الملك فى القاهرة .  
وحط حثام الملك الصالح وأودع صندوقاً من خشب  
الصندل . ثم حمل فى سفينه على البيل إلى القاهرة لا يدرى أحد  
من ملاحها ماذا تحمل . وأرسيّت السفينة على ساحل حريرة  
الروضة ، وحمل الصندوق معلماً بأسراره إلى القصر  
واستمرت الرسوم فى القصر الملكى بالمصورة جارية على عادتها ،  
لم يتغير منها شئ مما يألفه الناس : ترفع الكتب والأحكام إلى  
القصر ليرى فيها الملك رأيه ، فتخرج عليها توقيع الملك برأيه  
ونخطه ، لا يشك من يراها أن الملك قد قرأها وجرى قلمه  
عليها مما جرى

ويعد طعام الملك فى مواعده ويمد سماطه ثم يرفع ، لا يشك  
من يرى ذلك أن الملك قد أكل طعامه وشرب شرابه .

وتصدر الأوامر إلى الأمراء والقادة ورؤساء الحُد وعليها طابع الملك وخطه . لا يشك من تصدر إليه أوامر الملك الذي يدين له بالولاء والطاعة

ويستأذن عليه من يستأذن من أهله وخاصته وأصحاب الرأي في دولته . فيحرج إليه الخاضع معتذراً بأن الملك متعب ولا يستطيع أن يلتقي أحداً

شيء واحد أثار الريبة في نفوس بعض دوى الإدلال من الخاصة . هو كثرة تردد الأمير فخر الدين على القصر مصحفاً وممسياً . كأن له وحده الخطوة من دون الأمراء . وكان ممد قريب منهما يطلب الملك رأسه لأنه لم يحسن الدفاع عن دمياط . ماذا تعير من الأمر هذا وخطى حتى ليس لأحد غيره من الأمراء في القصر خطوة ولا مكان ؟

وتذكر من تذكر ما كان من مرض الملك وشكواه من داء الصدر وقرحة في المأبص ، ولخط من لخط أن الطبيب هبة الله يلزم القصر ولكنه لا يكاد يخف إلى عمل أو يغادر حجرته . وهمس هامس في أذن صاحبه

— أحسب أن الملك قد مات

— بلى إني أكاد أستيقن ذلك يقيناً

— ها هذا الكتب التي تحرج كل يوم وعليها توقيع الملك بخطه ؟

- علم ذلك عند شجرة الدر ونخادتها سهيل . وكلاهما كاتب يحسن إمساك القلم
- وتراها تجرؤ
- ومم تحاف
- ولماذا تحي
- علم ذلك عند الأمير فخر الدين

## ١١

ومالت الأفواه على الآذان حمساً . تم ارتفع الخمس فصار حديثاً على الشماه . وانتشر الحديث حتى سمعه كل دى أدن فى المدينة . وسارت به الركبان فلولاً التوقير والمهانة لشخص الملك . ولولا أثارة من الريب فى بعض النفوس ، ولولا ما يشعل الناس من أضاء الحرب — لكان حديثاً على الماير وقال الأمير فارس الدين آق طاي مقدم المماليك لأصحابه . — إني لأتوقع أن يكون صحيحاً ذلك السأ ، لم يجمع إداعته إلا حذر العدو أن يريد قوة !

قال بيرس

— حذر العدو ، أو حذر الأمراء

قال قلاوون

— وحذر الأمراء أيضاً أفليست ترى مكاة فخر الدين في  
القصر " فكيف يطمئن مثله إلى بحاح تديره لو علم الأمراء " <sup>١</sup>  
قال أيبك

— وهل يطمع ذلك الحمار الرعديد وقد اهرم أمام العدو  
في أول جولة أن يكون له شأن دون سائر الأمراء <sup>٢</sup>  
قال آق طاي عاباً

— أفتطمع أنت يا أيبك ، تصديقاً لحديث أنى رهرة الدحال ،  
ولا يطمع مثل الأمير فخر الدين بن شيبخ الشيوخ <sup>٣</sup>  
فاخر وجه أيبك ، وقال قلاوون دهشاً

— أتعي أن فخر الدين يطمع في العرش " لقد أعدت في  
الطن يا آق طاي . فأين طوران شاه ابن مولانا الملك الصالح " <sup>٤</sup>  
لا كان والله شيء من ذلك وفي أعمادنا سيوف !  
قال آق طاي هادئاً

— من أحل ذلك يحرص فخر الدين على إحصاء الأمر ،  
وما أعدت والله في الطن يا قلاوون ، وإنما أعد فخر الدين في  
الأمم وأسرف في قدر نفسه !

وكأنما حتى التركمانية من أمراء المماليك أن يثب إلى  
العرش أمير من عبر حلدتهم لا يعوقهم فروسية ولا يعضلهم



تديراً وسياسة . فأجمعوا على الدعوة لابن مولاهم . وبعثوا إلى  
 حصن كيهما من يدعو الملك المعظم طوران شاه ليتسلم عرش  
 أبيه . وكان آق طاي على رأس وفد الأمراء إلى المشرق .  
 ومعه رسالة من الأمير حسام الدين نائب الملك في القاهرة  
 وعرفت شجرة الدر بما اجتمع عليه رأى التركمانية فلم تقاوم  
 ولكنها لم تستكن . إنها لتعرف طوران شاه في ضعيف الرأي  
 طياشاً ، لا يحسن السياسة وتدير الملك ، وإنها لتعرف ما كان  
 رأى أبيه فيه فآثر إبعاده عن العرش حرصاً على رأسه . ولكنها  
 إلى ذلك لا تحب أن تعارض ما اجتمع عليه رأى الأمراء ،  
 لأن بها حاجة إلى رصاهم واستبقاء مودتهم . ولا تريد  
 إلى ذلك أن يعرف طوران شاه أن أمراء المماليك كانوا أحرص  
 على تمليكهم من امرأة أبيه . فترسل إليه رسولا كما أرسلوا إليه ،  
 وليسق رسولها رسولهم لتكون لها بذلك يد عده ، وليدع له على  
 الماير كما يدعى لأبيه . ولتوحد له البيعة بولاية العهد مد الآن  
 قبل أن يستيقن الناس موت أبيه . فان ذلك كله حليق بأن يمكن  
 سلطانها ويعد عنها التهمة ، ويهيئ لها الأسباب لتطل قابضة  
 على السلطة تصرف أمور الدولة كيف تشاء ، ومادا يعيها من  
 شخص الملك ما دامت في يديها كل السلطات ، فهي الملكة  
 وإن لم يكن لها عرش ولا تاج ٩

وقدم على طوران شاه رسول الملكة شجرة الدر ، وقدم عليه  
كذلك آق طاي برسالة الأمير حسام الدين ، ونهياً للرحلة من  
حصن كيخا إلى القاهرة على الطريق الطويل الذى سلكه أبوه  
ممد عشر سين .

وكاد موت الملك لا يرال سراً مطوياً لم يدعه القصر ولم  
يتحدث به نائب الملك إلى أحد من الخاصة أو العامة ،  
ولكنه مع ذلك حديث شائع يتردد على أفواه الناس فى شتى  
أحياء البلاد لا يؤمنون به ولا يكادون يذكروه  
وكانت معركة الصليبيين لم ترل دائرة . قد حشد لها الفرنجة  
كل ما يملكون من قوة وعناد ، وجمع لها المصريون كل ما  
يستطيعون من أسباب الدفاع والمقاومة ، وكأنما كان سقوط  
دمياط فى أيدي الصليبيين وما نال أهلها من القتل والتشريد  
والمدة حافراً لكل دى يدين أن يتهاى لحمل سلاحه للدود عن  
حياته وعرضه وجماله ، وكأنما كانت هزيمة فخر الدين فى تلك  
المعركة شرارة ألهمت دمه فأخذ يعد عدته للتأر ويستجمع  
قوته للوثنة

وأشقت شجرة الدر ليلها ونهارها ترقب حركات العدو فى  
الميدان وترسم الخطط للإيقاع به وإحباط مسعاه من غير أن

تبدأ هجوماً عليه أوتيهي له فرصة لاستئناف الرجف . وتألقت  
 فرق من الهدائيين تنقص على معسكر العدو على امتداد الساحل  
 وفي هدأة الليل أوى قيلولة النهار فلا ترال تجدل القتلى وتحمل  
 الأسرى عشرات ومئات وتحرب المشآت العسكرية . وضاق  
 العدو آخر الأمر بمكانه . فلولا حشيته أن يكون وراء موقف  
 المصريين مكيدة مبيتة لاستدراجه لاستأنف الرجف غير متلث  
 وانتصف الشتاء وقلت دحيرة العدو من الأقوات والوقود ،  
 وهت الأعاصير على سمنه الراسية في الليل فدمرت منها أكثر  
 من مائتي سفينة ، وتناعت عارات الهدائيين حتى حرمتهم هدوء  
 النهار وراحة الليل . وأوشك الحلاف أن يشب بين قادة الصليبيين  
 فيتدابروا وتذهب ربحهم

ثم حاءتهم الأساء بموت الملك الصالح ، فحرحوا في حمية  
 يقصدون المصورة في عدد وعدة . فلم تمض إلا أيام حتى كانوا  
 تحاه المصورة يتهاون لاحتيار البحر الصغير إلى المدينة التي  
 اتحدها المصريون قاعدة للدفاع

وشرع الفرنجة يقيمون على البحر معبراً يختار عليه الحمد .  
 وحلأهم المصريون وما أرادوا ، حتى إذا فرعوا منه أو كادوا  
 حمر المصريون خندقاً مثل الهلال عند مهايته ، فاندفع إليه  
 ماء البحر وحرف قاعدته فامهار المعبر وحمله التيار !

وظفقوا يقيمون على الساحل أرباحاً من الحشب العليظ  
 ليحرسوا مراكرهم ويرقبوا حركات عدوهم ، فما كادوا يصرعون  
 منها حتى انصبت عليها القذائف النارية من أفواه المجانيق  
 فرددتها أنقاضاً ورماداً على رؤوس من فيها من الحراس والجند ،  
 وشرعوا يقيمون غيرها فلم يكن حظها خيراً من حظ سابقتها ، وقل  
 الحشب في معسكر الصليبيين حتى لم يبق عندهم إلا السمن  
 يستلون ألواحها ليتحدوا منها وقوداً أو يدوا بها أبراج الدفاع  
 ولا تزال « النار الإعريقية » تنصب على معسكرهم من محاييق  
 نصها المصريون على الساحل المقابل فتلقى في قلوبهم الرعب  
 وتوقع في صمومهم الحلل . ولم يكن للفرجة عهد بهذا السلاح  
 الناري المبد المهلك . فلا يكادون يرون تلك الكرات  
 النارية الهائلة تنهاوى من السماء على رؤوسهم شعلا  
 وحمرات حتى يأخذهم الفرع فيتصرفوا في كل وجه قد ركب  
 كل منهم قفا صاحبه ولا يرال العدائيون يهبطون عليهم ساعة  
 بعد ساعة في الليل أو في النهار يتحطفونهم أحياء أو يتحطفون  
 أرواحهم بالمدى والخناحر

وألزمهم المقادير مكانهم داك يحيط بهم الماء من كل جانب  
 فليس لهم سبيل إلى الأمام ولا إلى الوراء . ثم دهم بعض الرواد  
 دات صراح على محاصرة في البحر إلى المصورة . فاحتارها



الأمير أرتوا - شقيق الملك لويس - على رأس فرقة من الفرسان  
 وحطوا أرحلهم على الساحل ودوى الأمير  
 وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ في الحمام، فخرج معجلاً  
 لم يستكمل عدة حربه، ووثب على ظهر فرسه واطلق على حية  
 للقاء طلائع الحيش العارى وليمحو عن حبيبه وصمة دمعته  
 مد تحلى عن دمياط !

ودارت المعركة . وأبلى الأمير فخر الدين بلاء حسناً في  
 الدفاع والمقاومة . وكان يحايل لعيبه بين يريق السيوف وحه  
 شجرة الدر تشجعه وتشد عزمه . وكان مطر الأمير أرتوا في  
 تياه الملكية العاخرة يحاً له أمان لا ترال تداعيه حليماً في الليل  
 ونحبالاً في اليقظة مد حديبه داك إلى شجرة الدر ، وحال نسيه  
 في العدو ذهاباً وحيئة وإلى يمين وشمال وصبوب طعة إلى  
 صدر الأمير أرتوا، ولكن طعة أخرى قد نالته قبل أن يشي دات  
 صدره بمصرع عدوه . وتحادل الأمير فخر الدين على الثرى  
 وبها عريته، وعسل عاره بدمه، وحلا الميدان من بعض فرسانه !  
 واندفع الأمير أرتوا وهرقته إلى المدينة، ودارت المعركة في  
 الشوارع . بالسيوف حياً وبالعصى وقطع الحجارة تتساقط  
 عليهم من أسطح الدور والنوافذ . واشترك النساء والأطفال  
 والشيوخ في المعركة وحباً لوحه أو من وراء الأبواب وحلف



استار الحدود . وظلت طليعة العراة تتقدم لم يشها ما حلفت  
وراءها من قتلى وجرحي . حتى بلغت ساحة القصر ، وكانت  
فرقة الحرس برياسة الأمير ركن الدين بيرس مرابطة على  
الأبواب . وكانت شجرة الدر ترقب المعركة من النافذة بقلب  
واحف وقد وقفت إلى حاسها فتاة مورعة القلب بين مولاتها  
وبين الطريق قد راعت عيائها فلا تكاد تثبت على مسطر  
وتقدم الأمير أرتوا نحو باب القصر . وهزت شجرة الدر  
كف الفتاة إلى حاسها وهي تقول

— اهتني به يا حهان أسمعيه صوتك !

وهتعت حهان حجرة وعلى مسمع من مولاتها لأول مرة  
بالاسم الذي تهتف به كل يوم آلاف المرات في حلواتها  
حمساً وفي حنين وشوق

— بيرس ! بيرس ! هدا يوهك يا بيرس !

ودوى هتافها في ساحة القصر وصافح أدنى قناها . فرفع  
عييه إلى حيث سمع مصدر الهتاف . ثم اندفع شاهراً سيئه  
فاعترض سبيل العدو . واندفع وراءه حده . وحال سيئه في  
الرقاب يقعد الصلوع ويشق المرائر ويطيح الهام ويحبدل الأنطال ،  
حتى فتح ثعرة في جيش العدو فهدمها إلى القلب وصوب  
رمية إلى صدر أرتوا فحبدله . ثم ترحل عن عرسه والسيف في

يده يقطر دماً وهو يحيل عييه فيما حوله وفيمن حوله يطلب  
من يبارره ، ولكن جيش العدو لم يثبت وقد تجندل  
قائده ، فتفرق أباديد في ساحة القصر وقد ركبته الحرس بالسيوف  
فلم يبق منه بقية !

وكان الملك المعظم طوران شاه في طريقه إلى مصر قد بلغ  
دمشق . وفي ركابه الأمير فارس الدين آق طاي . وعشرات  
من مماليكه وخاصته قد عاد بهم من حصن كيما ليكونوا له  
حاشية وبطانة !

وارتدت فلول المراجعة إلى مراكرها على العدو الأخرى من  
البحر وقد خلعت في طرقات المدينة ألفاً وخمسمائة قتيل من  
رهرة المحاربين والفرسان . بينهم الأمير أرتوا شقيق الملك لويس  
التاسع ، ولولا سيئة القدر للحق الملك لويس بأحيه في تلك  
المعركة هو وأنخواه الأميران آ نحو وألفوس

وسرحت البطائق في أحصحة الحمام إلى القاهرة بأحجار النصر ،  
فأريست المدينة واستبشر الناس وقويت روح الشعب وداع  
بين المماليك مقتل الأمير فخر الدين فأهرع عامتهم إلى داره  
يقتسمون ماله !

ووقع الحلل في صفوف الصليبيين بعد تلك المعركة الدامية  
فالتزموا الدفاع في أماكنهم وبينهم وبين عدوهم البحر ، على

أن المصريين لم يدعوا لهم لحظة للاستقرار ، فلا يرالون يصلونهم  
ناراً ويرمونهم بالحجارة ويتحطفونهم أحياء ويتصيدونهم بالسال ،  
ثم أعدوا عدتهم ليقطعوا عليهم طريق العودة ويحصرهم حيث  
كانوا حتى يطلبوا الأمان أو يموتوا ، فصعدوا أسطولا من السفن  
المحاربة وحمّلوها في البر قطعاً إلى حيث أنزلوه في بحر المحلة واتجهوا  
به إلى ما وراء خطوط الصليبيين ، فقطعوا عليهم طريق العودة  
إلى دمياط وطريق التموين جميعاً ، وقل الراد في معسكر العدو  
وتناثرت على حوايه حثث القتلى وطمت على سطح الماء ، فانتشر  
الوباء وأصاب الحيل والناس جميعاً . فلم يجد الصليبيون  
مأصفاً من الرحيل براً إلى دمياط عن طريق فارسكور .  
حينئذ تهيأ المصريون للهجوم إذ لا يملك العدو عن نفسه دفاعاً ،  
وكان ما لا بد أن يكون ، وتعثرت الحملة الصليبية السابعة  
أساءة ممرقة ورمماً . وبلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً ، وسبق من  
بقى إلى معتقل الأسرى حتى يمتدّى نفسه ، وأسلم الملك لويس  
التاسع نفسه فاقيد أسيراً إلى المصورة حيث اعتقل في دار  
التداعي فحرّ الدين بن لهما وحمل في رجله قيد من حديد ،  
ووكّل حراسته الحصى صايح المعظمى ، وافتيد معه إلى الأسر أحواء  
الأميران العوس وآحو . وبعث عشرات من النلاء والسادة

## ١٢

وبلع الملك المعظم طوران شاه مصر فنزل بالصالحية ،  
 واستقبله الأمير حسام الدين نائب السلطنة مهشاً ، فخلع عليه  
 الملك ورده إلى بيابته . وأديع يومئذ نعى الملك الصالح نجم  
 الدين أيوب - في منتصف دى القعدة - بعد مهلكة ثلاثة  
 أشهر . وبودى طوران شاه سلطاناً على البلاد . ورحل إلى  
 المصورة فحل بدار أبيه وحللاً بأصحابه بدر أمره .  
 وعذر باق طای وكان قد وعده في الطريق أن يقطعه  
 بعض البلاد

وعزل حسام الدين عن بيابته ولولاه ما دعاه داع إلى  
 عرش مصر .

وأقصى قلادون وأبيك وبيرس وكل التركمانية من ممالك  
 أبيه ، وكانوا دعائه وحره

وأرسل رسله إلى دار الأمير فخر الدين بن الشيخ فاحتملوا  
 إليه كل ما فيها من مال ومتاع ورقيق فلم يدعوا فيها شيئاً  
 يقوم بمال

وبعث إلى شجرة الدر يناقشها حساب ما أنفقت وما أنقت  
من تركة أبيه ويسألها أن ترد إليه ما تحت يدها من مال  
وجواهر.

وحاس خلال عرفات القصر يعاتب العلمان المرد والحواري ،  
واقترح على خطايا أبيه حدوثهم فلم يترك على وجه حجاباً ، وأسهر  
عن وجه وقاح

وأهرعت حهان إلى مولايها وقد قد قميصها

— الحماية يا مولائي

— ماذا بك يا حهان ؟

— السلطان يا مولائي .

— مالك وللسلطان ؟

— لا يريد أن أكون لبيرس

— وما شأنه بلبيرس ؟

— لا شأن له به يا مولائي ، ولكنه يدعوني إلى ما لا أطيقه

ولا يطيقه بلبيرس

— أنعين

— نعم يا مولائي ، وقد قد قميصي هزرت من بين يديه

ألمس حمايتك

— وإذا أعاد محاولته يا حهان ؟



- أقول له إننى لبيرس  
 — وإن أئى أن يستمع إليك ؟  
 — لن يعلب إياؤه إيائى !  
 — فادا اعتصبك يا حهان ؟  
 — أدود عن نفسى بيدى حتى أموت ولا أخون أمانة  
 بيرس !

\* \* \*

ووفت حهان بما وعدت فلم تحس أمانه بيرس ، وكان  
 بيرس يدفع بسيفه فى أقصبة المهرمين دفاعاً عن بلاده ومليكه .  
 حين كانت حهان تدفع بيدها فى وجه مليكها مستدسلة لا تريد  
 أن تحون أمانة بيرس  
 وحملت على أعناق الرجال عذراء طاهرة لتوارى الثرى ،  
 وحمل السأ إلى بيرس عداة عودته مطفراً من أعظم معرك  
 حاصتها مصر صد العزاة وكان هو بطلها المحلى  
 وأقسم بيرس أن يثأر لفتاته ولو تحصص العرش بالدم !

١

وأسرف طوران شاه فى الشراب واحتجب ، ولم يدع أحد  
 من الأمراء والسادة إلا ناله بمساءة ، وانتزع السلطات من  
 أيدي الأكهاء ليضعها فى أيدي الأراذل من مماليكه ودمامه .

وكأنما بدا له وقد صار إليه العرش أن من حقه أن يحرص على  
أهل البلاد جميعاً أن يستأسروا له طائعين ويملكوه أموالهم  
ودمائهم . وأعراصهم أيضاً

وصاق به الشعب والأمراء والممالك جميعاً ولم يجلس على  
العرش إلا بصعة أسابع

وتدانت الرعوس ، وتهامست الشفاه . وتبادل المؤتمرون  
الرأى بينهم طويلاً ثم انتهوا إلى فكرة

وكان الملك المعظم في فارسكور قد أمر فصب له على شاطئ  
اليل دهلير سلطاني . وأقيم إلى حابه برج من خشب ،  
وهيئت له أسباب القصف والمصرة . شد السباط ، وأوقدت  
الشموع . ورصت القناني والكئوس

وبال منه الشراب فاستل سيفه وأخذ يطيح رعوس الشمع  
وهو يصيح في شوة

— كذلك أفعل بالممالك البحرية !

وتسلل إليه بيرس وفي يده سيف مسلول . فأهوى به  
عليه وهو يقول في انفعال وغيظ

— وكذلك تعمل بك !

وبال السيف يده ولم يصب منه مقتلاً ، فخرج صائحاً

— ما فعل بي ذلك إلا البحرية ، والله لا أبقيت منهم بقية !

ثم بلحاً إلى الريح الخشي ، فكأنما كانت كلمته تلك إعراء  
للبحرية بالأحهاز عليه ، فحصره في الريح وأشعلوا فيه النار ،  
وعاين الموت فصاح من أعلى الريح

— من يصطبعي فيقطنني وله عرشي !

وحملت الريح صيحته فلم يستمع إليها أحد . وحصرته النار  
حتى شوت جلده ، فألقى نفسه إلى الليل وهو يصيح في  
يأس

— ليس في حاجة إلى ذلك العرش . دعوني أرحم إلى  
حصن كيما !

وابتلع اليم كلماته فلم يستمع إليها أحد . وألقى آق طاي  
نفسه وراءه فأحمر عليه سيفه في الماء . ثاب طعياً حريقاً  
عريقاً ، ثم حملت حثته إلى الحسر حيث طلت ثلاثة أيام  
حتى جافت ، فلم تدفن إلا بشعاعة رسول الخليفة العباسي .  
هووريت التراب بلا احتمال !

### ١٣

كانت الشمس قد عابت ولكن السماء لم تزل مصطعة بلون  
الشفق ، حين أرسى رورق صغير على شاطئ المصورة فهبطت  
منه سيدة ملثمة تحب في ثياب صفافة قد سترتها من قمة

الرأس إلى أحصى القدم . فلا يدومها إلا عيان تصبان فيهما  
قلق وريبة . ثم هبط وراءها من الورق شابان فارعان في ثياب  
الفرسان لهما سمت ومطروفي عيونهما مثل ما في عيني السيدة من  
الريبة والقلق وكأما أرسى الورق على هذا المكان من ذلك  
الشاطئ في هذه الساعة من الليل لموعده قد حدد بدقة ،  
فلم تكذ السيدة والشابان يهبطون إلى الأرض حتى أقبل شابان  
في ثياب الحرس السلطاني . مثلاً بين يدي السيدة وابحيا  
ابحساء خفيفة للتحية ثم استدارا إلى الطريق ومشيا تتبعهما  
السيدة ورميلاهما لم يتحدث أحد مهم إلى أحد . كأما هي خطوة  
مرسومة قد عرفها كل واحد من الخمسة تفصيلاً فلا حاجة به إلى  
أن يسأل ولا أن يجيب . ومشت السيدة يسبقها شابان ويتبعها  
شابان كأما يقيس كل مهم خطوته حتى لا يتأخر عن موضعه  
من رملاته . على أن السيدة فيما يدوم تسلك ذلك الطريق  
من قبل معدة ولا مصاحبة ، فقد كانت حركة رأسها في ذلك  
الطريق تنبئ عن رعيتها في أن تحقق الطريق كل ما تقع عليه  
عينها من صور الطريق ، أولعل ذلك كان مطهراً من مظاهر  
القلق النفسي الذي يدوي نظرة عينها

وظلوا يمشون حتى انتهوا إلى بقاء قائم في طرف المدينة قد  
انسط بين يديه فناء واسع وقام على بابه بواب عليط العنق

عريض الصدر في عينيه جد وصرامة وفي وسطه منطقة قد  
تدلى منها خنجر في حرايه لا يبدو منه إلا مقصص عاطل من  
التمويه والرخوف . فلم يكذب يقرب منه هؤلاء البهر الحمسة حتى  
نحلى مكان إلى جانب الباب ليسمح لهم الطريق ، فلما صاروا  
نراء الباب دفع أحد الشاينين مصراعه بيده فافتتح ، ثم وقف  
ووقف زميله وأصرح بينهما طريق بعدت منه السيدة إلى  
الباب يتبعها المارساين الشبان ، ثم انصهق وراءهم الباب  
وكان لويس التاسع حالساً في جانب من العرفة على حشية  
مصنوعة على ساط دي تصاوير وقد أسد طهره إلى وسادة  
على الحائط حين سمع على الباب طرقاً حميماً . فقال في صوت  
خافت كالهمس

— ادخل .

ودخلت السيدة ونخلت الشاينين يتطراوان خلف الباب ،  
فلم تكذب تتوسط الحجرة حتى رفعت عن وجهها اللثام ونضت  
عن حسدها ذلك المعطف السانع ، فلم يكذب يراها لويس حتى  
صاح في لهفة وقلق

— مرحريت ! ما جاء بك ؟

وهب واقفاً ، ثم ابدع إلى روحته مشوقاً قلقاً قد تورعته  
الخواطر واختلطت به مدهاب الفكر .



قالت مرجريت في هدوء

— جئت لأقيم معك في هذا الأسر يا لويس ، حتى  
يأذن الله بالمرح .

— ماذا ؟ أتبلع العلقة بهؤلاء الأوعاد أن يقودوا إلى الأسر  
مرجريت دي بروفانس لأن روحها قد كان معهم في حرب  
مشروعة ؟

— رويدك يا لويس ، فما قادى أحد إلى الأسر وإنما  
استأسرت لهم طائفة لأويس وحشتك يا حبيبي !  
— أنت ! تستأسرين هؤلاء الكفار طائفة من أحلى  
يا مرجريت ؟

— من أحلك يا لويس ، فما تطيب لي الحرية وأنت في  
وحشه الأسر لا تجد من يؤسك ويسرى عنك فهل يسوءك  
يا لويس أن تشاطرك روحتك آلامك ، لتنال معك من نعمة  
السماء أحر الجهاد والصبر

— الآلام، والجهاد، والصبر ما أعظم ما تصفين يا مرجريت  
وما أقل ما يستحق من الأجر ! لو لم تكن هذه الخاتمة  
لأملت أن يكون ما تصفين من الأحر ، أما وقد كان ما تريين  
فاني لم أفعل شيئاً إلا أن سفكت دم عشرات الآلاف من  
أهل الصليب . فعلى رأسى هذه الدماء جميعاً يا مرجريت !

— تلك إرادة السماء يا لويس ! وماذا كنت تملك أن تفعل  
غير ما فعلت ؟

— كنت أملك أن أموت على صهوة حوادي وفي يدي  
سيفي يقطر من دم هؤلاء الكفار !

— ومن يبارك ولأولئك الآلاف إن كان ذلك يا لويس ؟  
— وهل تأملين يا مرجريت أن أعود إلى الحرية فأثار  
لأولئك الآلاف !

— ستعود إلى الحرية يا لويس ، وتعتلى صهوة حوادك ،  
وتروى طمأ سيفك من هؤلاء الكفار ، وتبارلن قتلوا من الشهداء !  
— هيهات يا مرجريت أن يطلق هؤلاء المسلمون لويس  
ملك فرنسا وقد حصل في أيديهم ، لا هم ليعلموا ما يحمل  
لهم في صدره من العصاة وما يتمي لهم من آماني السوء

— بل سيطلقون سراحك يا لويس إذا أدبت لهم ما يطلبون  
من مال . فهل جاءك أنهم قتلوا مملكتهم ولم يستقر على عرشه  
نضعة أساييج ، لأنه هم أن يسألهم فيم أنفقوا ما حلف أبوه من  
المال ؟ المال يا لويس هو الذي أعراهم مملكتهم فقتلوه شاباً  
في عصوانه ، وهو الذي يعريهم بأن يردوك إلى الحرية لتتياً  
للنار !

— يا ليت يا مرجريت ! ولكن من ذا يدفع عني ما قد

يطلبون من القديّة ويداي معلولتان ٤

— سيتبارى رعاياك من أبناء فرنسا ، والمسيحيون في شتى  
بقاع الأرض ، ليدفعوا قديّة القديس لويس ويردوا إليه حرّيته  
— آه ! ما أطيّب قلبك يا روحي المحبّة ! إن المسيحيين  
وأبناء فرنسا على السواء يا محرّريت لا يحنون لويس إلا حين  
يقودهم إلى المعام ، أما لويس الأسير في دار موحشة من بلاد  
الكفر فليس يحظر على نال أحد أن يعتديه بدم أو مال أم  
حسبت كل هؤلاء الآلاف الذين كان يقودهم لويس من  
مرسيليا إلى دميّاط فالمصوورة كانوا يتبعونه لشيء غير طلب  
الغنيمة والمجد ٥

— أوه ! أدلك قولك يا لويس ٤

طأطأ الملك الأسير رأسه في انكسار وهو يقول في صوت حافى  
كأنه بين يدي قسيسه يعترف بما أسلف من خطايا  
— نعم يا مرعريت ، لقد حرحنا باسم الصليب نطلب المجد  
في الأرض . فتحققت فينا مشيئة الرب وانتهينا إلى الأسر  
والهوان والمدلة !

قالت الملكة في همس

— لله شجرة الدر ! كما كانت تقرأ من لوح مسطور وراء  
العيب ما سمعته أدناى الساعة

- ماذا يا مرعريت ؟
- لا شيء يا لويس .
- ولكن كلمات هامة كانت ترق على شفئك . . .
- كنت أعيد ما وعته أدناى من حديث شجرة الدر .
- شجرة الدر ؟
- نعم . ملكة مصر والشام ووريثة عرش صلاح الدين .
- أو صارت ملكة ؟
- نعم . وإيها لأهل لما بلغت ؟
- وماذا وعته أدناك من حديثها ؟
- ما كنت تقوله لى الساعة يا لويس
- لم أفهم ما تعنين يا مرعريت
- قالت لى إنما خرجتم باسم الصليب تطلبون المجد
- إلعيمة ، فحق عليكم أن تنهوا إلى الأسر والهوان والمدة !
- كذا قالت ؟
- نعم ، وكدت أرد عليها قولها وأترك مجلسها غير معتدرة
- ثم ماذا ؟
- ثم كطمت عيظى واحتملت اللطمة من أحلك يا لويس
- من أحلى أنا ؟
- نعم ، ها سعيت إلى لقائها إلا لأسأها بما جلت عليها

كل أنثى من العطف والرحمة أن تأذن لى فى لقائك والتحدث  
إليك ساعة . وقد أدت لى أن أحصر إليك تحت الليل فى  
حراسة اثنين من فرسان الداوية . وأصحتى اثنين من حراسها  
ليدلانا على الطريق ويدفعنا عما قد يعترضنا من شر العامة ،  
فان شئت يا لويس بقيت إلى حاسك فى هذا المعتقل حتى  
يأذن الله بالمرج

صت الملك برهة يفكر . ثم رفع رأسه قائلاً

— ولكنى لا أشاء يا مرعيت

— لماذا يا حبيبى

— لأنك تستطيعين فى حريرتك أن تسدى إلى يداً ، إذا

رصى المسلمون أن أفتدى بنفسى بمال

— وإذن فأنت ترى أن أعود إلى دمياط لأحتال فى جمع

ما قد يطالب المسلمون من مال الفدية

— نعم . وإلى اللقاء يا مرعيت

— إلى اللقاء يا لويس

وعادت الملكة أدراجها . وعاد الملك فجلس على حشيته

مستنداً إلى وسادة على الحائط يفكر ، واصفق الباب وراء

الثلاثة ، وتقدم الحرسيان السيدة المثلثة على الطريق وتنعها

الفرسان حتى انتهوا إلى شاطئ النيل ، وهبطت السيدة



إلى الزورق ثم تعها الشانان ، فانساب الرورق على سطح  
الماء مسحراً إلى الشمال .

## ١٤

لم يسكر أحد في مصر على شجرة الدر حقها في اعتلاء عرش  
الأيوبيين بعد مصرع طوران شاه ، إلا من حيث أنها امرأة ،  
فلولا أن التقاليد في مصر الإسلامية لم تشهد قبل شجرة الدر  
أنثى على العرش لكان لها الجميع بالولاء والطاعة في إحلاص  
وحمة . فقد كانت من إحكام التدبير وحسن السياسة وسعة  
النفس وطيب السمعة بحيث لا يعرض ذكرها على لسان إلا في  
معرض الإعجاب والتقدير والمهابة . وكان المماليك الصالحية  
— وهم يومئذ عدة الدولة وعصدها ومظهر قوتها وعمواها — أشد  
طبقات الشعب لها إعجاباً وتقديراً ومهابة ، إذ كانت روجة  
أستادهم وولي نعمتهم الملك الصالح أيوب ، هذا إلى أن هؤلاء  
المماليك لم يسوا قط أن بينهم وبين شجرة الدر آصرة أوثق  
وأقوى ، فقد كانت رقيقاً مثلهم قبل أن تبلغ منزلة الإمارة .  
أحدرهم ألا يأنموا بعد من ماصيهم في الرق إذا كان الرق يؤهلهم  
إلى الإمارة والملكية ، بل ما أحدرهم أن يباهوا بمملوكيتهم هذه  
إذا كانت امرأة من « أسرة المماليك » قد رقيت العرش بجدها

وكفائتها . ومن ثمة كان تعصم لها وإيثارهم إياها ولزومهم طاعتها والولاء لها .

ولم تنس شجرة الدر حين أجمع الأمراء على توليتها العرش أن سويتها هي وحدها الحجة التي يمكن أن يحتج بها الدين بذكور عليها أن تكون ملكة . لذلك حرصت من أول يوم على أن تصيف اسمها السوي إلى اسم آخر لا تذكر عليه التقاليد حق الملكية ، فصار اسمها منذ وليت العرش الملكة أم حليل . فهي ملكة بأنها أم . لا بأنها امرأة . وما أكثر النساء اللاتي حكمن في التاريخ بأسماء آبائهن ولعلها ذكرت وقتئذ ما حدثها به أبو رهرة المعجم منذ بضع عشرة سنة

على أن شجرة الدر وقد نشأت في حجاب الملك الصالح — على ترمته وعيرته — لم تطب نفسها وقد وليت العرش أن تخرج على مألوف عاداتها أو تعذر بعهد مولاهما فتتبرر إلى الرجال تحدثهم ويحدثونها في شئون الملك والسياسة ، فأثرت أن تحتار من الأمراء من يكفيها ذلك ويرد إليها الأمر ويستمد منها الرأي ولعلها ذكرت وقتئذ ما كان بينها وبين الأمير فخر الدين من حديث قبل أن تحترمه المية

وقد كان يسعها أن تحتار لذلك الأمير حسام الدين بن أبي على نائب السلطنة لعهد زوجها الملك الصالح ، أو الأمير

نارس الدين آق طاي مقدم الممالك ، أو الأمير ركن الدين  
 بيرس قاهر الصليبيين . أو الأمير سيف الدين قلاوون .  
 ولكنها أثرت على كل أولئك الأمير عر الدين أيبك الحاشكير  
 وأطرحت غيره من أصحاب الحياه والإمارة . أما حسام الدين  
 فاما لم تس له أنه أول من أرسل إلى طوران شاه في حصص  
 كيما يعي إليه أباه ويدعوه إلى العرش . وأما آق طاي ولأنه  
 كان شريك حسام الدين في ذلك التدبير ، وأما بيرس ولأنه  
 أول من شرع السيف في وجه طوران شاه فقد دأبه ، فاسها  
 لتحشى إن أدته بعد ذلك أن يقال إنه متديرها قتل مليكه  
 ثم نال الثمن . وأما قلاوون فانه صاحب بيرس وآق طاي .  
 ثم إن أيبك - فيما ترى - رحل هادئ الطبع يؤثر السلامة .  
 فليست تحشى تسلطه واستشاره وإمها لتحب أن تجتمع في  
 يديها كل السلطات

وكان من تقاليد بني أيوب - مد ولي صلاح الدين عرش  
 مصر وأبطل فيها مذهب الشيعة - أن يلتبس الخالس على  
 عرش مصر اعتراف الخليفة العباسي في بغداد بولايته .  
 وكأما حشيت شجرة الدر ألا يعترف بها الخليفة ، فأصافت  
 إلى اسمها صفة أخرى . رلى إلى الخليفة المستعصم ، فهي  
 « شجرة الدر أم حليل المستعصمية »

ونقش اسم شجرة الدر على السكة ، وصدرت باسمها  
 الأحكام ، ودعى لها على المنابر ، فكان الخطباء يقولون في الدعاء  
 كل جمعة « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحناب المبيع ،  
 ملكة المسلمين . عصمة الدنيا والدين . أم حليل المستعصمية »  
 وحلعت على الأمراء فأفاصت ، وتصدققت على الفقراء  
 فأعدقت ، وبشرت راية السلام فأمن الناس

وبدب الأمير حسام الدين والقاصي بدر الدين السجاري  
 ليعاوصا المريحة على الحلاء عن الأرض والساحل ودفع هدية  
 الأسارى ، وأدعن الصليبيون مكرهين لما أملى عليهم من شروط  
 الصلح ، واحتهدت مرعريت دى بروفاس في تحصيل المال  
 لاقتداء روحها وأخويه ، فدفعوا ثمناً لخریتهم أربعمئة ألف  
 دينار ، وأبحرت السفن بمن بقى منهم في الرابع من صفر سنة  
 ٦٤٨ . وعادت الراية الإسلامية تعرف على دمياط .

ومثل الأمير جمال الدين بن مطروح بين يدي شجرة الدر  
 وقد أسل من دوما الستر ، ينشد من شعره في جمع من الأمراء  
 قل للمريسيس إذا حثته مقال صدق من قنول بصيح  
 آحرك الله على ما حرى من قتل عباد يسوع المسيح  
 أتيت مصر تبتعى ملكها تحسب أن الزمريا طبل ریح  
 فساقك الحسين إلى أدهم صاق به عن باطريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم  
 سعوى ألهام لا يرى منهم  
 ألهمك الله إلى مثلها  
 إن يكن النانا بدا راصيا  
 فاتحدوه كاهسا إسه  
 وقل لهم إن أرمعوا عودة  
 دار اس لقمان على حالها  
 بحس تدبيرك بطن الصريح  
 إلا قتيل أو أسير حريح  
 لعل عيسى منكم يستريح  
 قرب عش قد أتى من نصيح  
 أصبح من شق لكم أوسطيح  
 لأحد ثار أو لفعل قبيح  
 والقيد باق والطواشي صبيح !

## ١٥

قال بيارس

— لقد كان كل ذلك والله سعد شجرة الدر وإحكام تدبيرها  
 للملك . فربأيا كان إخفاء موت مولانا الملك الصالح حتى لا  
 تشب الفتنة ويطمع العدو . وبحس توحيتها كانت هزيمة  
 المبرحة في وقعة المصورة ، ومعركة الإيالة في فارسكور ،  
 وابقاد الملك لويس للأسر ، وحلاء الصليبيين عن دمياط  
 وأرض الساحل ، ثم هذه الهدية التي أهدت العدو وعمرت  
 حزانة مصر



قال آق طاي

— إنيك لتتحدد قدر نفسك يا بيرس ، فلولا بلاؤك في معركة المصورة ، وركوبك أقمية المهرمين في هارسكور ، ما كان شيء من ذلك

فاحتلحت شفتا بيرس وانتفع مسحراه رهواً وقال وهو يصطلع التواضع

— وما أنا وأنت وهؤلاء التركمانية جميعاً ، هل نحن إلا حند الدولة وعدتها إن ألت بها كارثة ؟ فقد كان كل ذلك حق الدولة علينا

قال آق طاي محمداً

— ومع ذلك فقد أعملت حتى وحقتك وآثرت علينا أيك الجاشنكير

قال بيرس غير مكترث

— أفذلك تعني يا آق طاي ؟ إن الأمر لأهون مما تقدر ، وإن أيك لرحل من حلدتنا على كل حال ، وإيه لأسلم عاقبة من مثل الأمير فخر الدين

فاستدرك قلاوون عائداً

— ولكن سوءة أتي رهرة المسح ما ترال تتحايل له أمية

بالنهار وحلماً بالليل ، فلعله وقد صار أدنى إلى العرش أن تحيل  
له أوهامه أن يستبد

فصحك بيرس وقال

— وماذا يكيدك من ذلك يا قلاوون وقد تسأ أبوهررة لى ولك  
يمثل ما تسأ به لأبيك . فدعه يرود لما الطريق ١

عص آى طاي على شمتة ضحراً وقال

— لا ترالون فى هذا العت أيها الممالك والأمر حد ، وإنى  
لأرى ما لا ترون

قال حسام الدين بن أبى على فى هدوء

— أراكم تستقون الخوادم أيها الاحوا وتقدرون ما لا يمكن  
أن يكون ، فما أطن الحليفة المستعصم يقر تولية امرأة على عرش  
مصر وإن هزمت الصليبيين وطهرت منهم بلاد الاسلام ،  
وهذا ابن يعمور نائب دمشق قد حرح على الطاعة وأبى أن  
يكون تحت سلطان امرأة ، وانصم إلى الثورة أمراء بنى أيوب  
فى الشام . وكأنى يوم قريب يرحف فيه من المشرق جيش  
لحب بقيادة الناصر صلاح الدين بن العرير صاحب حلب ،  
ليستخلص عرش مصر من شجرة الدر .

قال قلاوون

— بل قل ليستخلصه من أيدي التركمانية برعمه

قال آق طاي في حماسة

— والله لا كان ذلك أبداً وفيها حياة ، لقد صبيع ببوأيوب  
عرشهم حين تفرقوا في الأرض يطلبون المافع الصغيرة العاحلة  
وتركوا هذه البلاد تطؤها أقدام الغزاة فلم ينقدها إلا التركمانية !  
قال بييرس معترضاً .

— ولكك كنت تنكر مد قريب أن يكون أيك حاجب  
الملكة وتأتى عليه مكانه .

— نعم . ولكن الدولة تركمانية يا بييرس مد استخلصها  
ممالك الترك من أيدي الصليبيين ، فلا يمكن أن يعود إليها  
سلطان الكرد وسأدفع عنها نسيى ولو كان الملك الجالس على  
العرش هوأيك الحاشنكير !

• •

— مولاتى

— ما وراءك يا عر الدين ؟

— قد جاء رسول الخليفة أمس بكتاب

— ماذا فيه يا عر الدين ؟

— إبنى لم أفص علاقه يا مولاتى ولكه هوالدى فص العلاف

وأقرأيه

- وى ١ ذلك تنىء لم تجر به عادة الملوك يا أيبك ١
- نعم يا مولاتى ، وإنما فعلها بأمر مولاه الشيخ نجم الدين البادرانى رسول المستعصم
- لأمر ما يعمل المستعصم ما بين بغداد والقاهرة من تقاليد السياسة ، فإدا فى تلك الرسالة يا أيبك «
- ها هي دى الرسالة يا مولاتى
- « إن كانت الرحال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رحلا أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صل الله عليه وسلم أنه قال لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » «
- طوت شجرة الدر الرسالة ودفعها إلى أيبك وهى تقول
- ومن صاحب رأى فى قصر الخلافة بغداد اليوم يا عر الدين ؟
- المستعصم بن المستنصر يا مولاتى
- المستعصم أم حواريه وحصيانه ووريره الرافضى يا أيبك ؟
- أنت أعلى عيباً يا مولاتى
- وامرأة على العرش كشجرة الدر يحكم باسمها ويصون حكامها أمير مثل عر الدين خير حكماً ، أم صى وجارية وورير رافضى وحليفة لا حكم له ؟

— أنت أحكم سياسة يا مولاتي وأسدُّ رأياً ، وإن للمستعصم  
عليها ولاء التطوع لا ولاء التابع . فان شئت يا مولاتي رددت  
رسوله بلا جواب !

— صبرك يا أيبك ، فما يطيب لي أن أشق عصا الطاعة  
على الخليفة وأحاهر بالعصيان له ، فهل تراه يعنى حقيقة الحكم  
أو مظهره حين يشترط الرحولة ؟ فاني لأستطيع أن أترصاه فأجعل  
له على العرش واحداً من أمرائي ويبقى في يدي السلطان  
والصولحان

عص أيبك بريفة ولم يحد حواهاً ، واستطردت شجرة الدر  
في صوت حافت كأنما تتحدث إلى نفسها

— ولكن امرأة الملك الصالح لا يحمل بها أن يكون لها  
شريك في الحكم تحلو إليه للرأي والمشورة إلا بعين الله وعلى  
دين ومروءة

ورفع أيبك إليها عييه فكأن لم يرها من قبل ولم يستمع إلى  
بر حديثها . ورأى نارائه امرأة في الشباب ذات جمال وفتنة  
ولم تكن من قبل إلا ملكة ذات مهابة

واحتلج ، ووجد في صوته حسنة وفي أطرافه خدراً ، فلم  
يستطع إلا أن يهتف



– مولاتى

ثم أمسك قالت شجرة الدر

– قد فهمت ما تعنيه يا عر الدين ، ولكن لك امرأة  
وولداً

وابحت عقدة لسانه فقال فى طلاقة

– هل هى وولدها يا مولاتى إلا حارية من حواريك  
دات ولد ؟

قالت باسمه

– أشريك فى الحكم وشريكة فى الروح ؟  
فاندفع متحمساً

– بل لك الحكم . والروح . والولاء كله يا سيدتى !  
– وتطلقها يا أبك ؟

– وأطلقها فلا تمت إلى سبب ولا وشيجة !

– وتهجر دارها فلا تراها ولا تراك ولا تتحدث إلى ولدها  
حديثاً ولا يتحدث إليك ؟

– وأقطعها قطعة بائنة فليس يبي وبها آصرة ، لأخلص  
لشجرة الدر فليس لغيرها فى القلب مكان ولا فى النفس ذكرى !  
واعت عينا المرأة واحتلح بدمها ، فقالت وقد مدت إليه يداً .

— فليهنك الملك يا أيبك

قال وقد شد على يدها بأصابع متشحة

— وليهي رصاك يا مولاتي !

وعادر مجلسها وقد اتسع صدره ، وسمح أنه . وانطبق

فكاه ، ولعت في عييه نظرة ملك

وبودي بالملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ملكاً على البلاد

في آخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ ونزلت له شجرة الدر عن العرش

الذي وليته مستقلة به مد مصرع طوران شاه

وحمل نجم الدين البادراني حواب الملك المعز إلى الحليمة

المستعصم في بغداد يعبر له فيه عن ولائه وطاعته ويسأله أن

أن يقره على العرش ويبعث إليه بالخلعة ومرسوم التولية

ومصت أيام ، ثم دعى الفقهاء والقضاة وأمرأه المماليك

ورؤساء الحسد إلى قصر القلعة ليشهدوا عقد الملك على شجرة الدر.

وكانت ملكة أرملة ، فعادت ملكة وروحاً ، وإنها لتأمل

إلى ذلك أن تصير أمّاً تهيب ولدها للعرش بعد أبيه المعز وتتعوّص

به من ولدها الذي مات مد سنين !

## ١٦

وبدا كما استقرت الأمور في مصر وثبت عرشها للتركمانية ،  
لولا انتقاص أمراء الأيوبيين في الشام ، واستيلاء الناصر صلاح  
الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب على دمشق ، وورود  
الأنباء بحركته إلى مصر

وكأما حيل إلى المماليك في مصر أنهم يستطيعون أن يسترضوا  
الأيوبيين في مصر والشام لو أنهم جعلوا على العرش أميراً من  
بنى أيوب إلى جانب أيك وكان مهم إلى ذلك جماعة  
يفسدون على أيك ما بلغ من المكانة ويأنهون من رياسته ،  
فكأما بدا لهم أن يجعلوا له شريكاً في الملك ليستقصوا مظهره  
الملوكي ويكسروا شموحه وكبريائه

فأقاموا صديقاً يتيماً من بيت الملك الكامل باسم الملك الأشرف  
موسى ، وقربوا اسمه إلى اسم الملك المعز ، فكانت المراسيم تصدر  
وعليها اسم الملكين ، وكان حطاء المساحد يدعون على المنابر  
للمعز والأشرف معاً ، على حين لم يكن لواحد منهما على الحقيقة  
أمر ولا هي ، إذ كانت الساطعات كلها في يد شخص ثالث

يحسن التدبير والسياسة ، هو شجرة الدر  
ولم يتحقق للمالِك ما أرادوا بتولية الملك الأشرف . فلا  
الأيوبيون ثابوا إلى الهدوء والطاعة ، ولا الملك المعز حلف من  
شموخه . فان الموكب الملكي ليشق شوارع القاهرة لا يكاد  
الناس يرون إلا الملك المعز قد حجب بحسامته وامتداد فرجه  
الملك الصبي

وقوى أصحاب الناصر في الشام وتهيئوا للرحف على مصر فلم  
يقب إلا أن تشب المعركة بين الأيوبيين والمماليك البحرية ،  
فاما عادت الدولة أيوبية كما كانت وإما غلب التركمان فصار  
عرش البلاد للمماليك يتعاورونه مملوكاً بعد مملوك

ولم يكن العرب المصريون بمعمل عن هذه الحوادث وإلهم  
ليؤمنون بأنهم أحق بعرش هذه البلاد من الكرد والتركمانية  
جميعاً ، وقد كان لهم الحكم والسلطان في الدولة منذ انتشار الإسلام  
في ربوعها حتى انتزعها صلاح الدين من أيدي الفاطمية ،  
فما أحذر أن يعود إليهم الحكم وقد تقلص ظل الكرد عن البلاد  
واحسر الخطر الصليبي

ونهباً الأمير ثعلب شيخ أعراب ديروط لاهتيال الفرصة  
يؤيده عشرات الآلاف من العرب في الحروب والشمال  
وأشرفت الدولة على الانحلال وتورعتها المطامع ، وكانت

شجرة الدر ترقب الحوادث في حدر ويقطة وتعد لكل أمر  
عدته

وخرج حيش المصريين لقتال الناصر الأيوبي ، وعلى رأسه  
الملك المعز والأمير فارس الدين آق طاي التركماني وسائر أمراء  
المماليك ، ودارت المعركة في عرة ، ثم في بليس ، وكادت  
تدور الدائرة على التركمانيه ، لولا كثرة من كان في حيش  
الناصر من مماليك الترك

وعاد حيش المصريين إلى القاهرة مطعراً ومعه الأسرى من  
حيش الناصر . ساحقهم مكسة . وطولهم مشقة ، وقد  
سبقتهم إلى القاهرة حيولهم وأثقالهم وأموالهم عسيمة للمصريين  
وأحصى من تسرب إلى القاهرة من حشد الناصر فاداهم  
بصعة آلاف ، فألزمهم المعز أن يعودوا من حيث أتوا ،  
راجلين أو على ظهور الحمير من مصر إلى الشام ، لا يؤذن لأحد  
مهم أن يركب فرساً

وشهد المصريون موكباً هائلاً لم يروا مثله قط ، مشهد يثير  
السحرية والإشفاق جميعاً ثلاثة آلاف حمار عليها المرتدون  
من حيش الناصر قد بكسوا رؤوسهم حتى قاربت أن تمس  
آذان الحمير . فلعل حماراً منها أن يهق فيهق لهيقه ثلاثة  
آلاف حمار يتردد صداها بين مصر والشام !



وشمخ آق طاي بأنه إد كان بجده واستبساله قد أدرك المعر  
هذا النصر ، فوق بين يدي الملكين يوحه حديثه إلى الملك  
الصبي دون صاحبه .

— كل ما حصل سعادتك يا مولاي ، وما سعيها إلا في  
تقرير ملكك !

وفهم أيبك ما أراد آق طاي فتعالي وطوى صدره على ما  
فيه من صاحبه .

ثم دارت الدائرة على العرب كما دارت على الأيوبيين فأحصى  
من قتلهم بصفة آلاف . وبصت المشاق لأمرائهم على امتداد  
الطريق بين بلبس والقاهرة ، واعتقل الأمير ثعلب فألقي في  
حب من حباب القلعة ، وجمدت حمرة العرب

وتوسط نجم الدين البادراني رسول الخليفة في الصلح بين  
الملك المعرو والناصر صلاح الدين ، عل أن يكون للمعز مصر إلى  
حدود الأردن . مصافاً إلى ذلك عرة والقدس وبابلس والساحل  
كله ، وللناصر ما وراء ذلك من بلاد الشام

وصفا الجول للملك المعز وأمس طهره ، فحلج الأشرف موسى  
وفناه إلى بلاد الأشكري واستأثر بالملك وحده ، ولكن شجرة  
الدر ظلت قانصة على السلطان فليس لأحد معها رأى ولا  
إرادة

## وحلصت الدولة للمالِك

— أرأيت أيلك في موكه يا بيرس ، شامع الأنف ،  
مطلق العكس ، ثابت الطرة . لا يكاد يرد التحية ، كأن مصر  
صيعته وكل من فيها عبيده

— ذلك حق الملوكية يا آق طاي ، أم تريده وقد صار  
إليه عرش مصر أن يمشى في الأسواق راحلاً يحب كل من  
يسأله ويقف لكل من يهتف باسمه ؟

— أتمرح يا بيرس فأي حق كانت له الملوكية دون  
سائر الممالِك الصالحية ، وما هو كبيرهم . ولا أثبتهم قدماً في  
الجهاد ، ولا أوسعهم حيلة ، ولا أقدمهم مملوكية !

— بحق شجرة الدر

— ها ها ! وما لشجرة الدر وهذا كله ، أصار إليها هذا  
العرش وراثته كبعض ما يرث الناس عن أهلهم من المتاع  
فتهه لمن تشاء ، أم أوليناها نحن إياه يا بيرس ؟  
— ولكها راحة مولانا الملك الصالح أيوب .

— بلى ، قد كان ذلك يوماً . أما اليوم فإها راحة الحاشكير .  
فإن كان أيلك قد حيات له أوهامه أنه بهذا وحده قد صار له  
عرش مصر من دوسا فقد ساء رأياً ، وسيرى عاقبة أمره !

— ماذا تعنى يا آق طاي ؟

— لست أعنى شيئاً يا بيرس . وإنما أنا أمير الممالك  
— سادة هذه الدولة — لا يعرفون لهم أميراً غيرى . فان كان لا بد  
— مع ذلك — لأدراك السيادة من أن أصل حلى بسب ملوكى  
فما أيسر أن تكون لى روحة أعرق أرومة وأوثق صلة بالملوكية  
من روحة أيلك الحاشكير !

\* \* \*

وأثارت مظاهر المدح والأبهة التى يجرح بها أيلك على الناس  
نفوس الأمراء جميعاً . وكأما لم يحسوا بانتقال رميلهم من  
الملوكية إلى العرش إلا حين تهاوى الأعداء والمتنافسون وخلصت  
الدولة للتركمانية ، فأحد ذلك لكل أمير من أمراء الممالك أملاً  
فى اعتلاء العرش بيلمس لتحقيقه الأسباب

واصطبح آق طاي لنفسه نطانة وحاشية كحاشية الملوك ،  
وجعل على بابه حرساً وطبلاً وموسيقى واتحد له شعاراً وراية ،  
وأنشأ حيشاً من الممالك يأتمر بأمره ويمشى بين يديه فى مواكبه ،  
وصار له مطهر وحاه وأمر وهى وسلطان ، فانه ليحير ولا يحار  
عليه . ولا تمد الشعاعات إلا من بابه ، ولا يمضى أمر  
لا يقره

وصاق أيلك درعاً بمافسه . وسحاول أن يريجه من طريقه

ليخلص له مطهر الملوكة في مصر فأقطعه الاسكندرية ،  
ولكن ذلك لم يجد عليه شيئاً

واسترسل آق طاي في علوائه ، فأرسل إلى الملك المطهر الأيوبي  
صاحب حماة يحطب إليه ابنته فأحابه ، وجملت العروس في  
تجمل رائد إلى دمشق في طريقها إلى القاهرة

وسعى آق طاي إلى أهلك يسأله أن يأذن له في أن يتحد  
لعروسه قصرآ في القلعة لأنها من بنات الملوك !

وصرت أسان أهلك عبطآ وحقآ ولكنه أمسك عن الجواب  
حتى يرجع إلى شجرة الدر يسألها الرأي

في ذلك الحادث دون غيره ، رأت شجرة الدر ما يبال من  
كبريائها ويمس غيرتها ، فليكن موقف آق طاي من أهلك  
حيث يشاء ، وليأفسه على ما في يده من أسباب الملك إن كان  
في يده شيء من أسباب الملك ، أما أن يتروح امرأة من  
بنات الملوك ويسكنها قصرآ في القلعة — مثل شجرة الدر — فتلك  
إهانة لا يغسلها إلا الدم !

وأشارت على روحها بالرأي

ودعا أهلك آق طاي إلى القلعة ليبادلها حديثآ في بعض  
الشئون ، فأحاب آق طاي دعوته غير مرتاب ، وصعد إلى  
القلعة ودخل القصر ، فلما صار في قاعدة الأعمدة حيث تعودت

الملكة أن تتخذ مجلسها . وثب عليه بعض المماليك فاحتزوا  
رأسه . . .

ومات قبل أن يتزوج !

وبلغ النبأ أصحابه . فصعد منهم إلى القلعة سبعمائة على  
حمية ، بينهم بيبرس وقلاوون ، لا يكاد أحد منهم يصدق أن  
أيك قد حرؤ على آق طاي فاغتاله ، فما هي إلا أن بلعوا  
أسوار القلعة حتى ألقى إليهم رأس أميرهم ، فتمرقوا مخزوبين  
قد بلغ منهم اليأس كل مبلغ ، ولم يطلب لهم المقام بعد في مصر  
فخرجوا مهاجرين وأحرقوا في طريقهم باب القاهرة الشرقي  
وأبراح عن كاهل أيك عبء كان يثوده ، وظن أن قد ملك  
واستقل ودانت له البلاد !

عل أن شجرة الدركاوت لم ترل قابضة على الصوبلخان .

## ١٧

— إني لأحمل والله يا قطر من الهم لذلك ما لا يكاد يحتمل ،  
والناس يطولون في السعادة !

— وماذا يجمع يا مولاي أن تجتمع لك أسباب السعادة



وأنت ولي الأمر في هذه البلاد لا تملك إلا طاعتك فيها تأمر  
وتنهى ؟

— أكذلك تظن يا قطر ؟ فكيف لو علمت أنني لا أكاد  
أنعم برؤية ولدي « علي » إلا مستحياً وعلى حذر ورقية ، وقد  
تقطعت بيني وبين أمه الأواصر فليست مني ولست معها !

— كيف يا مولاي وإنه لولدك ، وإن أمه لروحك ،  
وقد فرص عليك ديبك أن تقسم بالسوية بين روحتيك ،  
وفرصت عليك المرءة أن تحتضن ولدك البكر لينشأ على  
عبيك !

— وشجرة الدر يا قطر ؟

— ما لشجرة الدر ولها ؟ أتحرّم عليك أن ترى روحتك  
وولدك ؟ فما هي إذن دات دين ولا لها عليك حق الزوجة !

— لا حق الزوجة ولا حق الرعية يا قطر ، إن شجرة الدر  
هي الملكة الحاكمة . وما راد الملك المعرب باعتلائه العرش شيئاً  
على ما كان أيبك الحاشكير ، على ذلك اتفقنا يوم جلعت  
نفسها وألستني التاج والحلة طاعة لأمر الخليفة ، وعلى ذلك  
عاهدتها ولا رلت وفيما عاهدت !

— فليكن مكانها ملك حيث شئت وشاءت مقتضيات الحكم

والسياسة . ولكن ما شأها بروحتك وولدك ١ وكيف تحول  
بينك وبينهما ؟

— على ذلك اتفقنا أيضاً يوم رصيتى روحاً ملكاً !

— على المعصية ؟

— لا يا قطز ، فقد اتفقنا يومئذ على أن أطلق أم ولدى  
لأخلص لها ، ولكى لم أقو على ذلك وتحسبى شجرة الدر  
قد وهيت ، فليست أم ولدى فيما تظن إلا مطلقة لا حق لها  
— وولدك على ؟

— كنت آمل أن يكون لى ولد من شجرة الدر أنعوص به  
من على وأوليه عهدي ، ولكها لم تحبل ولم تلد !  
— وحرمت سلطة الملك ، وسلطة الزوج ، وسلطة الأب ،  
وحرمت روحتك وولدك ، ووأدت بنيك فى صلبك حين ارتبطت  
إلى هذه المرأة العقيم لا تحلص إلى غيرها من النساء والحوارى ،  
وكنت حرياً أن تتكثرت من الأبناء ليكون لك عزوة تسد عرشك  
وأنت على رأس دولة يرجى أن تتسلسل فى الأبناء والحمدة على  
امتداد التاريخ !

— ولكنى أكره أن أنكث بما عاهدتها يا قطز

— وعلام عاهدتها ؟

— أن أقطع ما بينى وبين أم على

— فلك ماض يا مولاي من هذا العهد بزواج حديد.

— رواج حديد ٥

— نعم ، ولعلك أن تجد في الصهر الحديد جاهاً يدعم عرشك  
ويشد عزمك ، ولعل راحة جديدة أن تحب لك وتكثر ولدك .  
ولعل شجرة الدر حين ترى لها صرة أن تنسه الأنثى فيها فتعطيك  
مقاداتها لتكسب ودك ، فيعود لك بذلك سلطة الملك . وسلطة  
الروح . وسلطة الأب ، وتسعد !

أطرق الملك المعز برهة مفكراً . وأمسك علامه قطر وقد  
تعلقت عيانه بسيده . لا يعرف أين ينتهي به الفكر فيما عرص  
عليه من مشورة

ثم رفع أيبك رأسه إلى علامه قائلاً

— ومن تراه أهلاً لأن أصهر إليه يا قطر من ملوك المشرق ٥

— إن شئت يا مولاي فاحطب إلى الملك الرحيم بدر الدين  
لؤلؤ صاحب الموصل أخته لؤلؤة ، وإيه لدوحاه وكرامة .  
وحبله موصل بدار الخلافة في بغداد . فما أحراه إن أصهرت  
إليه أن يحمل الخليفة على تشريك بالحلعة واللواء ويقرك على  
عرش مصر وإن شئت يا مولاي فاحطب إلى الملك المصور  
ابن المطهر الأيوبي صاحب حماة ابنته ، ليتصل سبك بني  
أيوب فلا ينتقض عليك مهم منتقص .

قال الملك المعز .

— كلتيهما يا قطز ! وقد رخص الله للمسلم في أربع  
سراثر !

وبعث الملك المعز مند العبد رسولين إلى حماة والموصل

\* \* \*

قال الشيخ بدر الدين السجاري قاضي مصر

— احذريا مولاي أن تمضي فيما اعتزمت ، وإني لأرجو أن  
تقبل مشورتي . برأ بعسك . وبالدولة . وشجرة الدر !  
— ومالك أنت ولهذا يا بدر الدين ؟ أهدلك من علم الحلال  
والحرام تريد أن تنصري به . أم هو قصاء قصيته وما وليتك  
قصاء مصر لتدخل بين الأزواج وروحاتهم وتفتحهم على سراثر  
الملوك !

— حق المسلم على المسلم يا مولاي أن يصحح له ويشير  
عليه . وقد رأيتك واقفاً على شفير هار فأردت أن أنصرك بما  
تحب قدميك من أسباب الهلكة ، وقد علمت ما كان لي من  
الرأى في دولة الملك الصالح ، وقد كان — على علمه وديته —  
أوسع لي درعاً .

— وي ! وتراني أيضاً لا علم لي ولا دين ولا سعة ذرع !  
— معذرة يا مولاي فما قصدت إلى هذا ، ولكي أقول

لأننى عاصرت أحداث هذه الدولة وتمرسست سياستها منذ بعيد ،  
 ها أحذر أن تستمع إلى رأى . وقد رأيتك تحطت إلى صاحبي  
 الموصل وحماة ابنتيهما ، أما أولهما فإن له عرش مصر سبباً منذ  
 كان بينه وبين الملك الصالح ما كان ، وإن بينه وبين التتار  
 أسباباً وقد علوا على المشرق كله ويوشكون أن يدخلوا بغداد  
 ليسابوا منها إلى مصر والشام ، فكيف تصنع إذا كان صهرك  
 بدر الدين لهم حليفاً . وأما الآخر فأمير من أمراء بني أيوب لا  
 يرال يرى ويرى له من حوله أنه أحق منك بعرش مصر . فكيف  
 تصنع إذا استيقظت الفتنة وشدت حرب بين مصر والأيوبيين  
 وفي دارك ست المصور ؟ ثم إنك يا مولاي أب وروج وقد  
 أشرفت على الستين ، وليس من الربيعك أن تعرس بنتين  
 دون العشرين . وإن لشجرة الدر عليك إلى ذلك حقاً لا يحمل  
 معه أن تضارها باثنتين وقد وطأت لك السبيل إلى العرش والسيادة .  
 فهذا ما أردت أن أقوله لأبرئ ذمتي وأؤدي حق النصيحة . . .

قال الملك المعز مخنقاً

— ثم ماذا يا شيخ ؟

— ثم يكون ما تراه يا مولاي

— فقد رأيت عراك من قصاء مصر يا بدر الدين فليس لك

منذ اليوم رأى ولا نصيحة ١



وشاع السأ حتى تحدث به الممالك والحوارى . ثم راد شيوخاً  
حتى عرفته شجرة الدر . فمس منها كبرياء الملكة وعيرة الأنثى  
في وقت معاً . وعلا دمها وثارت ثورة ملك أوشك أن يتحطم  
تأحه ويثل عرشه ، وثورة امرأة أوشكت أن تترع من رحلها .  
وكأما حيل إليها عدها وقد حلا الملك المعز إلى ست بدر الدين  
صاحب الموصل فتحدثت إليه بما تحدثت عن شجرة الدر  
في سخرية وشهامة . فطاب للملك المعز أن يستمع إلى حديثها في  
سخرية وشهامة كذلك ، وكأما أبصرت ست المصور صاحب  
حماة حالسة على عرش بى أيوب تحيل عبيها فيما حولها من أسباب  
الثرف والنعمة وهي تقول الحمد لله الذى رد على ملك أجدادى  
وأهلى من بى أيوب وأدال لنا من تلك الحارية ، فيؤم الملك  
المعز على قولها ويستطرد محاملاً وهل كانت شجرة الدر في بى  
أيوب إلا حارية !

وامتد بها الوهم فكأما أبصرت بين وبيات من سل  
المعز يمحون في حنات العرش ولا ولد لها ، وكأما حاهدت  
ما حاهدت طول حياتها لاستحلاص عرش بى أيوب  
لست بدر الدين أو بت صاحب حماة وما تسلسل من بينهما  
وبياتهما ، وينهى مجدها ليبدأ على أنقاصه محمد دولة بى  
أيوب الخاشكير !

وتحيلت نفسها في وحشة الليل قد أعلق من دونهما الباب  
ومضى إليك يتنقل بين مقاصير سائه يذوق من كل طعم ولا يشبع ،  
وهي وحدها تتجرع عصص الآلام .

وكما يطارد الأطفال معتوهاً قد فقد نصف عقله فلا يرالود  
به حتى يرتد مجنوناً قد فقد ما بقي من عقله — كذلك طلّت  
أوهامها تطاردها !

وفقدت الأنثى العيور نصف عقلها أسفاً على المجد الذي  
توشك أن تحلعه أو يوشك أن يحلعه ، وفقدت ما بقي حرنأً  
على الرجل !

ثم فاءت إلى نفسها قليلاً وراحت تدر حطة وحيل إليها  
أنها تستطيع أن تطل ملكة وروحاً ، وأن يطل لها عرش ورجل .  
عرش مصر نفسه ، ولكن الرجل غير إليك الحاشكير .

وكتبت كتاباً إلى الملك الناصر صاحب دمشق تدعوه إلى  
الرحف على مصر ، وتمنيه أن تهى له أسباب النصر ، وأن ..  
وأن تتزوجه !

وبلع كتابها الناصر ، فهم أن يجيبها ، ثم اشترط أن تقدم له  
عربود الصفيقة مقتل إليك

وعادت تفكر من جديد في حطة غيرها ، وحاءها البأ

باعترام المعز على إبراهيم من القلعة إلى دار الوزارة بالقاهرة ،  
ليهيئ قصر القلعة لعهد حديد .

يا ويلنا ! حتى القصر . لم يعد يتسع لها ، وكانت تقصص يدها  
على القصر والعرش والملك والدولة جميعاً ! فلتدبر أمرها على  
وجه جديد . .

ومثلت أمام مرآتها تؤامرها وتستمتع لما تصف لعييها من جمال  
لم يبله مرالسين ، واطمأنت إلى ما دبرت

وكان الملك قد هجر القلعة وأقام في ماطر اللوق مد أيام ،  
فبعثت إليه رسولها يدعوه ويتلطف في الدعوة ، فكأما حيل إلى  
المعر أن شجرة الدر قد فاءت إلى طبيعة الأنثى حين يهجرها  
الرجل فهتت إليه نفسها حين لج في البعاد ، فأحاط دعوتها  
شيطاً راصباً

واستقبلته فرحة طيبة البس قد أخذت رينتها وتجملت ،  
وبدلت له ما تدل كل أنثى لمن تحب ، حتى ثاب إلى الأمان  
والطمأنينة . . ثم قام إلى حمامه ليعتسل

لقد جرح هذا الرجل مها كبرياء الملكة وعيرة الأنثى ،  
فليكن انتقامها إذلالاً لكبريائه ورجولته في وقت معاً  
ووثب عليه علمائها في الحمام فاهالوا على رأسه ضرباً

بالقباقيب ويرعون أنثيه ، يَموت حين يموت وقد تحطمت  
كبرياؤه ودلت رحولته !

وصاح الملك تحت العذاب

— العوث يا شجرة الدر !

وأدركتها رقة الأنثى فأشارت إلى علماتها أن يكفوا .  
ولكن قاتلا مهم انتدرها

— إن تركناه يا حويد فلن يتي علينا ولا عليك

وأفلت رمامها من يديها فسترت عيبيها ناكية وهي تهمس  
في إشفاق ورحمة

— أيبك !

ولكن أيبك لم يسمع هتافها ، فقد زهقت روحه قل أن  
تصافح أذنيه كلمة الحنان تلمظها شفتاها ، وقد عاش ما عاش  
على أمل كلمة حنان تلمظها شفتاها !

واستدارت الملكة الأرملة على عقيبيها وقد سترت وجهها  
بكفيها وتتابع على خديها الدموع

هذا ملك ثان يموت تحت عيها ولا تدري كيف توارى

سوءته

وعاودها حنان الأنثى فحملته على صدرها إلى مخدعه .

ثم أسلت أجهانه ، وشدت لثامه ، ومدت على وجهه العطاء ،  
ثم أغلقت من دونه الباب وأوت إلى عرفتها تفكر

\*\*\*

امرأة في روث الصبا قد فقدت رحلها .  
ملكة ذات سلطان توشك أن تنزل عن العرش  
قائد في المعركة قد أحيط به ويوشك أن يتحلى عنه  
عسكره ..

كذلك كانت منذ نصح سنين يوم دهم الموت الملك الصالح  
بالمصورة ، وكذلك هي الليلة . ولكنها الليلة لا تملك تديراً  
ولا فكراً لأن في نفسها روح الجريمة  
وأوشكت أن تصرح مستعثة ، ثم تماسكت . وتحطتها  
الشیطان فلم تحس تديراً ولم تحكم فكرة  
وأشرق الصباح على حسد مسحى في فراشه وإلى جابه  
امرأة باكية ، وعرف كل من في القصر أن الملك المعرق قد مات

\*\*\*

قالت المرأة وقد وقفت إلى حاب ولدها نارا سرير الميت  
— لا ، لم يمت حتف أنه ، بل قتلته شجرة الدر  
— من أين لك علم هذا يا سيدتي ؟  
— لأنه أراد أن يروعا بصرتين



— ولماذا لم تقتليه أنت يوم راعك برواج شجرة الدر ؟

— كنت أترص به !

وأمسك السائل ، وبطر المصور على بن أيك إلى أمه مكرراً ما تقول . فرأى دموعاً تنحدر على خديها . . .

هذه امرأة أخرى تسكى رحلها وكادت تترص به . كذلك النساء جميعاً تهيجهن العيرة فلا يعرفن فرق ما بين الحب والعص ، ولا ما بين القصاص والحريمة . . ثم يبتدر الموت إلى من أنعصه بغص العيرة ، فيعرفن ، ولا يدقن طعم الحب إلا مللاً بالدمع !

\* \* \*

وولى الملك المصور على بن أيك عرش أبيه صبيّاً لم يبلغ الحلم ، وصعد وأمه إلى قصر القلعة ، وقام على أمره الأمير سيف الدين قطز مملوك أبيه . .

وأرادت أمه أن تقبض على شجرة الدر ولكها احتمت بالرج الأحمر في القلعة ومسحها مماليكها ؛ أكانت تحاول القص عليها لتثأر لنفسها من صرتها ، أو تثأر لروحها من قاتلته !

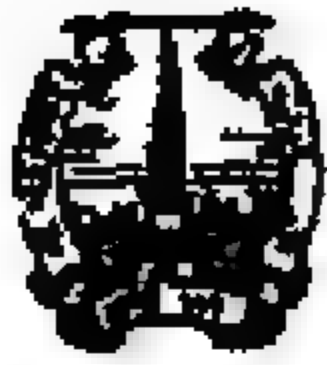
وأيقنت شجرة الدر أن مماليكها لن يمسوها طويلاً ووراءها صرتها تطلب الثأر ، فلم تحش الموت ، ولم تفكر في الهرب ، لأن شيئاً آخر غير الموت وغير الهرب كان يستأثر بتفكيرها .

جواهرها وحليها إياها لتخشى أن تقع تلك الحواهر والحلى في  
يد صرتها ، تغار أن يكون لصرتها بعد مقتلها حلى وجواهر  
وزينة ، فجمعت كل ذلك وبحقته في هاون وأدرته في الريح ،  
ثم أسلمت نفسها .

\*\*\*

وماتت شجرة الدر ، ولكن قبرها في القاهرة ما يزال مثابة  
للزائرين والرائرات ، وما تزال صحائفها تتلى على نوالى القرون

المطرية — القاهرة      محمد سعيد العريان



مطبوعات مصر

### المسند ( الجزء الثالث )

للامام أحمد بن حنبل وشرح الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر  
الكتاب الذي جعله مؤلفه للناس إماماً يرجعون إليه في  
تعرف السنة، وهو كالأصل لكتب الحديث ( ٨٠ قرشاً )

### ديوان الجارم ( الجزء الرابع )

للاستاذ على الجارم بك

تحمته أدبية رائعة تصم طائفة من القصائد الرنانة للشاعر  
الطائر الصيت على الجارم بك في مختلف الأغراض

### العلم في فنجان

للاستاذ حسن عبد السلام

دائرة معارف علمية مصورة لأهم الأبحاث والكشوف  
العلمية الحديثة في الكيمياء والطبيعة والطب والفلك والكهرباء  
وعلم الأحياء بأسلوب موحز جذاب

### مجلة الكتاب

( ١٠ قروش )

جزء نوفمبر ١٩٤٧

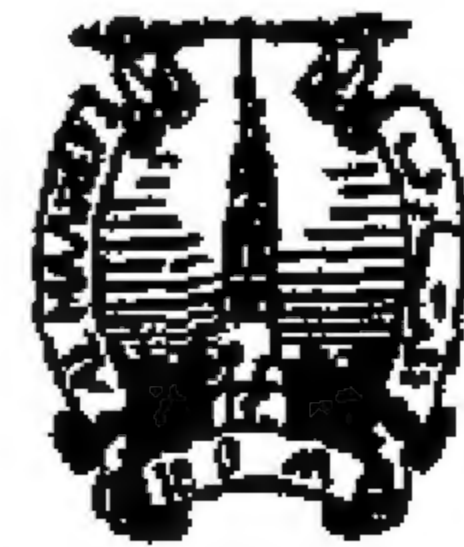
## روضة الطفل

- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كنكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفرو والبحرس
- ٥ ذئيل الفسار
- ٦ البطلة السوداء

أول مجموعة من نوعها  
باللغة العربية يجيد  
الطفل فيها قصصاً مفيدة  
مزيّنة بالصّور المبتكرة  
ومطوّعة بالألوان الجميلة

المجموعة الجديدة بأن توضع بين يدي كل طفل  
لتصعد به إلى الدرجة الأولى من سلم المعرفة  
في حُبِّهِ من المتعة والتسلية.....

تصدرها  
دار المعارف بمصر









# المجلد

جموعة من القصص الرشيفة المفيدة يجد فيها  
كل طالب وطالبة في جميع مراحل النمو المتعة  
والثقافة وسمو النفس . فهي تذكرة للآباء بمطالب  
أبنائهم ، وتبصرة للأبناء بفضل آبائهم عليهم .

ظهر منها :

١ عمرو ن شاه ١٢ قرشاً

٢ مملكة السحر ١٢ قرشاً

٣ كريم الدين البغدادي ٢ قرشاً

يظهر قريباً :

٤ آلة الزمان

إخراج أنيق • ورق فاخر • رسوم فنية



المكتبة القومية

إشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

